مصطفى نصر

قهوة على الرصيف

الكتاب: قهوة على الرصيف

الكاتب: مصطفى نصر

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

نصر ، مصطفى

قهوة على الرصيف / مصطفى نصر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٨٥٤ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٠٣٢٨ / ٢٠١٨

قهوة على الرصيف


وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

ماذا لو قرر رئيس البرلمان المصري كتابة كلمة (مرتشي) على ظهر كل من تثبت إدانته؟ هل سيخجل الموصوم بالوشم، أم سيسعد ويفخر بذلك؟ وما موقف الآخرين منه؟ هل سيعايرونه بوشمه أم سيحسون بأنه ما دام مرتشيًا، فهو غني لا شك؟ فما إن يلمح البقال هذا الوشم، حتى يقف له باحترام وسيحمل عنه مشترياته ويوصلها لبيته، فلن يختلف معه في الثمن، وسيدفع له بقشيشًا كبيرًا.

أتحدث عن زوجات المسؤولين الكبار، فقد دعانا رئيس تحرير جريدة سكندرية، تشغل جريدة شقة من شقق الضباط القريبة من مشرحة كوم الدكة، ودعانا للكتابة في جريدته، وانتهى اللقاء بعد ساعات طويلة، فوجئنا برئيس التحرير، ومُحَمَّد البدرشيني (عضو مجلس الشعب في ذلك الوقت)، وزميلنا محمود بكري صاعدين بالأسانسير، فقلت لبكري: انت لسه جاي دلوقتي! دي الندوة خلصت.

فلم يجبني، كان حزينًا ومهمومًا، فقد أخطأ في الدور، دق على الشقة التالية لمقر الجريدة، وظن أنه أخطأ في العمارة، لكن السيدة صاحبة الشقة وزوجة ضابط كبير في مديرية الأمن، اتصلت بزوجها مستنجدة، واتصلت بالبواب لكي يقبض على النازل في الأسانسير، واتصل زوجها بمأمور قسم

محرم بك فأرسل شرطيين طوال وعراض للقبض عليه، لولا تدخل رئيس التحرير والبدرشيني عضو مجلس الشعب.

وقد اكشتفت المخابرات السوفيتية مسؤولًا مهمًا يعمل جاسوسًا لصالح أمريكا، فسألوه عن السبب الذي أعانه على التخفي وتأخرهم في القبض عليه، فقال:

– لم أكن أفعل شيئًا سوى أن أختار للمناصب القيادية أسوأ من يتقدم.

ونحن في مصر نختار لكل منصب أسوأ المتقدمين، نفعل هذا دون أن نكون خونة أو جواسيس،

فعندما سألت النيابة المسؤول عن حريق مسرح قصر ثقافة بني سويف، قال إن سبب اختياره لهذا المنصب أن السيد الوزير شاهده يتحدث على شاشات التليفزيون أكثر من مرة فأعجب بفكره وبطريقته في الكلام

فهناك من يجيد الكلام، لكن عند العمل (يلوص) ويرتبك ويفشل.

وقد كان لي صديق يمتلك محلًا بشارع صفية زغلول بمحطة الرمل، ثم انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة، واكتشفوا أن محولًا كهربائيًا فسد ولا بد من تغييره، فقرروا أخذه من محول في منطقة راغب باشا (منطقة سكنية)، يعني سنعيش في الظلام طوال الليلة حتى يأتوا في الغد بمحول جديد، ففي محطة الرمل تعيش شخصيات مهمة، بينما في حينا الشعبي

يعيش الفقراء، هذا الفرق في المعاملة يشمل كل شيء، فلو وقف ضابط المرور في الشارع يعامل سائق الأجرة في تعالي، بينما لا يفعل هذا مع سائق الملاكي خشية أن يكون ذو حيثية.

وضابط المباحث لو دخل منطقة راقية سيتعامل بهدوء وسيراعي من يحدثهم، لكن في الأحياء الشعبية، حيث الفقراء يسكنون، يتعامل في قسوة وغلظة وخشونة.

ويتناول الكتاب موضوع الأشراف، فقد اعترضت نقابة الأشراف على مسلسل شيخ العرب همام؛ لأنهم ذكروا في المسلسل التليفزيوني أنه من الأشراف، فكيف يجرؤون على الزج بمن هو ليس شريف، ويدعون أنه كذلك؟!

وحكاية الأشراف هذه حكاية ظريفة، فالكثير من الحكام العرب ادعوا أنهم من سلالة النبي مُحَمَّد (عليه الصلاة والسلام)، ومن نسل الإمام علي (كرم الله وجهه)، فقد كنت في العراق في أحد المؤتمرات الأدبية، وكانت الجرائد العراقية الثلاثة (الثورة لسان حال حزب البعث، والقادسية لسان حال الجيش العراقي، والجمهورية) تقدم إلينا كل صباح في حجرات الفندق الذي نقيم فيه، وإذ بها كلها تتحدث عن احتفال سيقام اليوم في ذكرى مولد الإمام علي، تحت رعاية حفيده صدام حسين، هكذا ولم يعترض أحد لا في العراق ولا في غيره.وأصبح بقدرة قادر صدام حسين من سلالة سيدنا مُحَمَّد.

والملك فؤاد الذي كان لا يعرف العربية أدعوا بأنه من سلالة النبي مُحَمَّد، وأرادوا أن يكون خليفة المسلمين بعد أن أنهى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في تركيا، وما دام فؤاد من سلالة النبي فابنه فاروق لا بد أن يكون كذلك. وفي مقالة للأستاذ الدكتور أسامة فوزي يقول عن الشريف حسين: إنه رجل تركي ينحدر من جدة يهودية تزوجها (محسن) وأنجب منها ابنه (جدعون) الذي يعرف بين العرب باسم (عون)، ومنه انحدرت الأسرة الهاشمية التي حكمت العراق والأردن والحجاز، واليهودي كما هو معروف ينسب إلى أمه، فابن اليهودية حتى لو كان أبوه عربيًا أو مسلمًا يعتبر وفقًا للديانة اليهودية يهوديًا.

ويلقب حسين بن علي بالشريف؛ لأنه تولى الإشراف على الحجاز بتوصية من ضباط حزب الاتحاد والترقي التركي، وأكثرهم من اليهود، يعني لم يكن شريفًا لأنه من الهاشميين، وإنما لطبيعة عمله، لكن الكل يدعي أنه من الأشراف.

لقد كان آخر نقيب للأشراف في مصر السيد مُحَمَّد الببلاوي، لكن بعد موته عام ١٩٥٣ لم يعين جمال عبد الناصر نقيبًا غيره، على أساس أن كل البشر متساوون، ولا فضل لأحد على الآخر إلا بالعمل. وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن أصدر الرئيس حسني مبارك قرارًا جمهوريًا بتعيين السيد محمود كامل يس نقيبًا للأشراف في فبراير ١٩٩١، وبهذا قد عادت نقابة الأشراف إلى ما كانت عليه.

وبمناسبة الحديث عن نقابة الأشراف لا بد أن نتطرق إلى أهم نقيب للأشراف في تاريخ النقابة، وهو مُحَّد توفيق البكري، فقد كان شاعرًا وأديبًا يجيد لغات عديدة، وكان له دور في السياسة والمواقف المشهورة، فقد تم زواج صفية ابنة الشيخ السادات في بيته على الشيخ علي يوسف بعدم رضا أبوها، فصفية كانت أخت زوجته، وهي حادثة مشهورة تحدثت عنها الصحف طويلًا، كما أن البكري كانت له حكايات مع الخديو عباس حلمي، فهو المحرض على كتابة القصيدة الشهيرة في هجاء عباس حلمي، والتي مطلعها:

قدوم، ولكن لا أقول سعيد على فاجر هجو الملوك يريد
لأضرابه بيت من اللؤم عامر وملك وإن طال المدى سيبيد

وقد كان الخديو عباس حلمي يخشى البكري، ويحترس منه خشية أن يعينه اللورد كرومر (المندوب السامي البريطاني في ذلك الوقت) حاكمًا لمصر بعد خلع الخديو، فقد بلغه مدى إعجاب كرومر بالبكري، فهو يثني عليه حتى في غيابه، فدبر عباس حلمي مؤامرة للوقيعة بينه وبين كرومر، فأرسل حفني ناصف إلي بيت البكري ليناقشته في الأدب، فقال حفني ناصف له: معذرة فأنت نقيب الأشراف، لكنك لست حاذقًا في كتابة الشعر.

فغضب البكري، وتحداه بأن يكتب كل منهما قصيدة في موضوع معين، وينظرا من الأجود فيهما، فاشترط حفني ناصف أن يكتبا في مواضيع غير مطروقة، أن يكتبا في الغزل في المذكر مثلًا، فوافق البكري،

وكتبا قصيدتين، فأمسك حفني ناصف الورقتين، وشهد للبكري بالجودة والتفوق عليه، وتظاهر بتمزيق الورقتين، لكنه مزق ورقته، ودس ورقة البكري في ملابسه، وسلمها إلى الخديو الذي سلمها لكرومر، قائلًا له: هذا الذي تعجب به يعترف بالشذوذ بخط يده.

فغضب كرومر من البكري، ولم يعد يدعوه إلى الحفلات الرسمية التي تقيمها السفارة، ولم يعد يذكره بالخير في غيابه كما كان يفعل، وبهذا أمن الخديو عباس حلمي من خطر مُحَمَّد توفيق البكري نقيب الأشراف[1].

ويتحدث الكتاب عن عالم العبيد، عالم مخيف موجود في العالم كله، فيحكي كلوت بك في كتابه (لمحة عامة إلى مصر)، والذي كان يشغل نظارة الصحة في عهد مُحَمَّد علي باشا، بأن مجموعة من أهل الصعيد في أسيوط وجرجا يشترون الصبية، ويقومون بقطع أعضاءهم التناسلية، ثم يوضع المتبقي منها في زيت مغلي ليوقفوا تدفق الدم، ثم يدفنونهم في رمال الصعيد الملتهبة، حتى يضمدون جروحهم، فيموت ربع عددهم تقريبًا، لكن المتبقي منهم يصبحون من الطواشي، يبيعونهم بمبالغ كبيرة للأمراء والأغنياء ليعملوا في الحريم.

وهذا ما كان يحدث في قصور أسرة الشريف حسين في أرض الحجاز، فقد نشرت الأميرة (بديعة) ابنة علي بن الشريف فى مذكراتها التى نشرتها فى لندن، أن قصور جدها حسين وأعمامها عبد الله وفيصل فى الحجاز

[1] - فهمي ماهر حسن، أعلام العرب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، إبريل ١٩٦٧.

كانت تعج بالأغوات، والتى كانت مهمتهم رعاية النساء فى تلك القصور، فقد لجأ الشريف حسين وأولاده إلى عمليات خصى واسعة النطاق، بين الرجال الذين وقعوا في الأسر، وأطلق علي هؤلاء المخصيين لقب (الأغوات)، وقد تكاثرت أعدادهم فى القصور.

لقد ظلت العبودية منتشرة في العالم لوقت قريب جدًا، بل إنها مازالت موجودة في بعض البلاد العربية، مثل موريتانيا مثلًا، ففي كتاب (هذه حياتي) سيرة حياة عبد الحميد جودة السحار، يحكي عن جارية كان جده يمتلكها، وكان في شبابه يعاملها معاملة الزوجات، وكانت تغيظ زوجاته اللاتي يعشن معه بتقربها إليه في وجودهن.وبعد أن مات، أرادت أن تتمرد على الجميع وأن تترك المنزل، فسمحوا لها بذلك، لكنها عادت باكية ذليلة، فقد خابت في أن تجد لها حياة مستقلة بعد أن اعتادت على الحياة في البيت.

وهذا ما حكاه لي صديق، بأن جده كان يمتلك الكثير من العبيد في الصعيد، وعندما كان يغضب عليهم، يهددهم بأنه سيطردهم فيبكون، ويتذللون إليه، فهم لا يستطيعون الحياة بعيدًا عن البيت.فقد استمرت العبودية حتى بعد أن منعت رسميًا، وقد سمعنا في حينا الشعبي الذي جاء رواده من الصعيد، نسمع عن فلانة الفلانة التي والدها أو جدها كان عبدًا في الصعيد.

وفي كتاب صلاح عيسي (حكايات من دفتر الوطن) حكاية تحدثت عنها الصحف طويلًا في أوائل أغسطس ١٨٩٤.عندما جاء نخاسًا بست حبشيات

يريد بيعهن لرجال أغنياء، رغم أن من يضبط متلبسًا بالبيع أو الشراء أو التعامل في مثل هذه السلع، يعاقب بالسجن خمس سنوات.

اشترى علي باشا شريف (رئيس مجلس شورى النواب) ثلاثًا منهن بستين جنيهًا وسبعة للسمسرة، واشترى الدكتور الشافعي واحدة منهن.واشترت حرم حسين باشا واصف واحدة منهن، ومُحمَّد الشواربي باشا اشترى الأخيرة.

وتربص الإنجليز للمشترين خاصة أن ثلاثة منهم كانوا أعضاء في مجلس شورى النواب، الذي كان يهاجم الإنجليز ويطالبهم بتقليل الإنفاق الحكومي على موظفيهم الإنجليز.وأدى هذا إلى إدانة المشترين والتشهير بهم والانتقام منهم.

الأمر الذي يشغلني هو أن الدول التي تظلم شعوبًا أو فئات معينة، تعتذر إليهم أو تعوضهم عما نابهم من ظلم وإجحاف.فاليهود ينهلون من ألمانيا تعويضًا عما فعله هتلر الألماني بهم، والأمثلة في ذلك كثيرة، فلمن تعتذر البشرية نيابة عن هؤلاء العبيد الذين قاسوا من أسيادهم؟

مصطفى نصر

الرشوة في مصر

اقترح فلاديمير جيرينوفسكي نائب رئيس مجلس الدوما بروسيا تسجيل كلمة مرتشي بالوشم علي يد كل من تثبت إدانته بهذه الجريمة.

تخيلوا عندما يتحقق هذا في بلادنا، فيسير هذا الشخص وعلى يده وشم كلمة مرتشي باللغة العربية، فيذهب إلى البقال، ويمد له يده ممسكًا بالنقود، فيرى البقال هذه الكلمة بوضوح، ماذا تظن سيفعل البقال؟ سيضحك أو يبتسم، أو يتمتم بكلمات لا يسمعها هذا الموشوم.

أعتقد أن البقال سيأخذ النقود من الرجل، وسيرفع يده له محييًا باحترام شديد؛ لسببين: أولهما أن البقال لم يفاجأ بهذا الوشم، فمعظم زبائنه يملكونه، ويظهرونه بوضوح وهم سائرون.

ثانيهما أن هذا الرجل ما دام مرتشيًا فهو غني، وسيشتري منه بضائع كثيرة، ولن (يدق) في الثمن.

يقول صديق لي بأن الموظف الذي لا يقبل رشوة الآن هو عاجز وضعيف ولا تقدم إليه رشوة، بمعنى أنه شريف بالاضطرار، "مرغم أخاك لا بطل"، فهل من المعقول أن يوجد من تقدم الرشوة إليه فيرفضها؟!

وأعارضه في كل مرة، قائلًا:

لم تصل الأمور إلى هذه الدرجة من السوء، فهناك قلة شريفة.

فيذكر لي الأمثلة الكثيرة، شقيقه التاجر الكبير الذي ذهب لقضاء مصلحة في حي من أحياء الإسكندرية، فدس مبلغًا من المال في درج مكتب الموظف الكبير الذي يجلس في مواجهة عدد من موظفيه، لكن الموظف أمسك بالمبلغ وفرده أمام موظفيه، قائلًا بصوت مرتفع سمعه من في الحجرات الأخري: بتخبي الفلوس في الدرج ليه، هو إحنا بنسرق؟!

ثم وضع النقود على المكتب وصاح: ناقصين، لسه كذا..

وأتذكر ما حدث منذ سنوات طويلة، عندما ذهبت إلى مكتب صحة في شارع الخديو، قريبًا جدًا من مستشفي الولادة التي ولدت فيها زوجتي، لكي أستخرج شهادة ميلاد لابنتي، سمعت الموظفين يذكرون اسم عديلي، فهو مدير استحقاقات في مديرية الصحة التابعين لها، (يستخرج لهم مرتباتهم ومكافآتهم) قلت في فخر: إنه عديلي، لو أردتم منه شيئًا، أستطيع أن أبلغه به بعد أن أعود إلى البيت.

فابتسم لي رئيس الموظفين، فقلت في نفسي: لن يأخذوا مني رشوة هذه المرة، بعد أن علموا بأنني قريبه؛ خشية أن أبلغه بما يحدث.

وقدمت النقود وكلي ثقة بأنهم سيعتذرون عن تقبلها، لكنهم أخذوها مبتسمين شاكرين!

وحكيت هذا لعديلي، فضحك قائلًا: لقد ذهبت مع أخي لاستخراج شهادة ميلاد لمولوده الجديد، فأخذوا منه الرشوة أمامي.

الحكايات كثيرة، الرجل الملتحي الذي أصبح مالكًا لشركة ورق، بعد أن كان مجرد عربجي يحمل الورق على عربته وحصانه، ويسلمها لشركتنا (شركة الورق)، سمعته يتحدث في التليفون قائلًا لرجل يعمل معه عنده مشكلة مع الجمارك: ملكش دعوة، جيبلي اسمه وعنوانه وأنا حتصرف.

الرجل يتحدث بثقة، أي مسؤول سيقبل الرشوة.

وموظف متدين كان يعمل معي، ويعمل بعد الظهر في شركة قطاع خاص، يحكي أنه ذهب مع صاحب الشركة لتقديم هدايا (نتائج وأجندات وأقلام..إلخ) في أول السنة المالية لمصلحة حكومية يتعاملون معها، قال لي بكل الأسى: تصور! لم أجد موظفًا واحدًا يرفض الهدية، الكل قبلها شاكرًا وممتنًا.

كان من المعروف أن هناك فئات في المجتمع لا تقبل الرشوة منها السيدات، ولو مواطن له مصلحة في جهة حكومية أو شركة، يخاف أن يدس مبلغًا في يد أو مكتب موظفة، فهي لن تقبله.لكن في السنوات الأخيرة تجرأت المرأة ودخلت هذا الميدان، ونجحت فيه، وحققت مكاسب كبيرة، فنسبة كبيرة من مهندسي التنظيم من النساء، وبعضهن يتعاملن مع أصحاب العمارات المخالفة، ويوافقن على طلباتهم، ويحققن أغراضهم، ويخالفن اللوائح والقوانين من أجلهم؛ وذلك بسبب تفشي الفساد وانتشاره.

وعندما أقرأ في الجرائد عن وقوع مرتشي وضبطه وهو يتسلم الرشوة، أندهش وأتساءل: كيف وقع هذا الإنسان؟! الرشوة علنًا وأمام الجميع، ولا أحد يحاسب أو يحاكم؟! وأفكر في هذا، أتراه قد تمادى وبالغ واخترق قانون الرشوة المتبع، أو أنه اختلف مع رؤساء له أقوى منه، فأوقعوه في الخية، أو أنه غير مرضي عنه من الدولة؟!

وما داموا غير قادرين على حل هذه المشكلة، فعليهم التصالح معها.وذلك يذكرني بما حدث عندما كنت في السنة الثالثة بمدرسة العطارين الإعدادية، بأن جاء إلى المدرسة بائع سندوتشات فول وفلافل، يقف بجوار السور القصير ويشتري التلاميذ منه، وفي آخر اليوم الدراسي، يكتشف المشرفون على مقصف أو كانتين المدرسة، أن سندوتشاتهم بارت عليهم، ولا بد من رميها في الزبالة، حاولوا منع هذا البائع بشتى الطرق، وفي كل مرة يفشلون.وأخيرًا توصلوا إلى نتيجة ناجحة، وهي التصالح معه بأن يأخذوا منه السندوتشات بثمن أقل ويبيعونها في المقصف.

وقد اقترح البعض تقنين الرشوة، فبعد أن أصبحت حقيقة لا تقبل جدالًا، وبعد أن أصبحت أقوى من القانون ومن الرقابة ومن كل شيء، فلماذا لا يصدر بشأنها قانونًا ينظمها بأن يجعلوها تدفع بنسبة معينة، كل من له شيك بمبلغ كذا، يدفع عنه نسبة كذا للموظفين.وهذه الطريقة معمول بها في بعض المصالح، بأن يحصل الموظف على نسبة معينة مقابل تحصيله مبالغ لصالح جهة ما.فبعض الشركات تخصم لموظفيها نسبة محددة من مستحقات التأمينات الاجتماعية، وتورد الباقي لها، أو أن يخصم من

كل مشتري لمنتجات شركة معينة نسبة كذا في المائة لصالح صندوق الزمالة، الذي يفيد العاملين عند خروجهم على المعاش.أو جمعية أو نادي يعطيان الحق لمحصلي اشتراكات الأعضاء أن يأخذ ٢٠% أو ١٠% من المبالغ المحصلة، وهي تشبه نسبة ال١٠% الخدمة المحصلة من زبائن الفنادق والمحلات العامة.وبعض المحلات تضع صندوقًا للعاملين فيه يوضع فيه مبالغ الإكراميات التي يدفعها الزبون للجرسون، أو البائع، ثم يقتسمونها بينهم في آخر اليوم.

تخيلوا المنظر، رجل يدخل حجرة الموظفين في مصلحة حكومية، ويقدم أوراقه، مرفقًا بها مبلغ الرشوة، فيقوم الموظف ويضعه في صندوق موضوع في منتصف الجدار، في مكان ظاهر لكل الموجودين، وفي آخر اليوم، أو كل أسبوع (حسب الاتفاق) يقومون بعد هذه النقود، وتقسيمها بينهم بحضور المدير الذي أعتقد بأنه سيأخذ النسبة الأكبر.

الستات قادمات

في الطريق الصحراوي، وفي مدخل الإسكندرية، احتكت سيارة نقل بسيارة ملاكي مكتوب عليها (ملاكي الجيزة)، تقودها سيدة في منتصف العمر، أشارت سيدة مسنة – تركب سيارة ملاكي أخرى خلفها– لسائق السيارة النقل بأن يسير ولا يتوقف، لكن الشاب توقف تلبية لأوامر والده الذي يجلس بجواره.وقفت السيارة وخرجت منها المرأة المسنة، قالت للشاب: قلت لك يا حيوان لا تتوقف، خد بقى واشرب.

وخرجت من السيارة التي احتكت بها سيارة النقل، امرأة طويلة وعريضة كالدولاب، وزميلتها تحاول منعها، لكنها تحركت كالمارد، وصفعت الشاب بظهر يدها في عنف، وهي تسبه بأغلظ السباب.

يرتدي الشاب بنطلونًا أسود وفوقه جاكيت ترنج، ويرتدي والده المسن الملابس الريفية، أخذ الرجل المسن يستجديها ويستحلفها بأن تترك ابنه، وهي تصفع الشاب بكلتا يديها، قال الرجل في استجداء: إننا أناس طيبون، لا نتشاجر مع أحد، حتي في بلادنا لا نتشاجر مع أحد.

وزميلتها تشدها إليها.

عندما أراد الشاب أن يمنع المرأة العملاقة من ضربه، أسرع والده وصفعه أربع كفوف وهو يسبه، فقد تلين المرأة الثائرة وتعفو عن ابنه عندما تراه يضربه هكذا.

أخرجت المرأة العملاقة موبايلها وداعبته بأصابعها ذات الأظافر الطويلة الملونة، فقالت الأخرى لها: كفى، زوجك مشغول الآن.

لكنها لم تتوقف، ربما ستتصل بنمرة أخرى.فشدت المرأة الأخرى الشاب في احتقار وهي تسبه: اركب سيارتك يا حيوان وامشي.أسرع الشاب وحاول ركوب السيارة، لكن المرأة العملاقة شدته من قفاه في احتقار شديد، وهي تسبه وتصفعه.

وقفت السيارات، ونزل سائقوها محاولين فض الاشتباك، لكن المرأة العملاقة صاحت في قوة وكبرياء:

مش عايزه حد هنا.فقال شاب غاضبًا: إحنا كان قصدنا نخدم وننهي المشكلة. وأسرع إلى سيارته وانطلق بها، وبعد قليل جاء شرطي.

ظلت هذه الحادثة تطاردني؛ فمن الممكن أن يقع أي إنسان في هذا المأزق، أن تصطدم سيارته بامرأة مثل هذه، زوجها من رجال الأعمال الذين يمتلكون الملايين ويسيطرون على كل شيء الآن، أو ضابط شرطة، أو واصل وفي منصب كبير، أو أو..

فماذا سيحدث؟ ما الذي سيفعله شاب وهو يرى امرأة تضربه وتسبه وتهينه بهذا الشكل؟!

قلت لنفسي هي كانت ناقصة، مش كفاية ما يفعله أزواجهن في الناس؟!

وهذا يذكرني بما حدث يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ٢٠٠١، حيث دعانا الأستاذ مُحَمَّد بسيوني، رئيس تحرير جريدة سكندرية، إلى لقاء في مقر جريدته في مساكن الضباط المواجهة لمبنى سكك حديد الإسكندرية. الرجل –مثل الكثيرين– يحلمون بتطور جريدته بالاستعانة بأدباء الإسكندرية.

حضرنا اللقاء، كان معنا الأصدقاء: صبري أبو علم ومهدي بندق والدكتور محمود رشدي وغيرهم، قابلت رئيس التحرير في مكتبه، وكان معه مُحَمَّد البدرشيني، وكان نائبًا عن الحي الذي أسكنه وقتذاك فقلت له: أنا من رعاياك.

وعندما علم أنني من قرية (المراغة)، قال: ياه، دا أنتم أصحاب المكان هناك.

حيث يتجمع عدد كبير جدًا من المراغية في هذه المنطقة.

انتهي اللقاء، وفتحنا باب الأسانسير للنزول، ففوجئت بالصديق (محمود بكري) صاعدًا في الأسانسير مع رئيس التحرير والنائب مُحَمَّد البدرشيني، قلت لبكري: أين كنت؟! لقد انتهى اللقاء.

فلم يجبني، وعندما هبطنا إلى الشارع حكى لنا الدكتور محمود رشدي ما حدث، فقد جاء محمود بكري في موعده قبل بدء الندوة، لكنه خرج من باب الأسانسير في دور أعلى من الدور الذي تسكنه الجريدة.ودق جرس الباب ففتحت له سيدة، سألها عن اسم الجريدة، قالت: مافيش حاجة من دي هنا.فظن أنه أخطأ في العمارة، فمدخل العمارات متشابه، فقال لها: آسف، أكيد في العمارة المجاورة.

وركب الأسانسير وخرج في الدور الأرضي فإذ بالبواب يمسك به ويمنع خروجه، فقد اتصلت به السيدة عبر الهاتف الداخلي وأمرته بأن يمسك النازل في الأسانسير، واتصلت بزوجها الضابط في مديرية الأمن، الذي اتصل بمأمور القسم، فأرسل رجلين طوال وعراض للقبض عليه.ولا أدري ما الذي أخبر رئيس التحرير والبدرشيني بهذا، فهبطا إليه، كل هذا حدث ونحن منشغلون بالندوة.

دارت المباحثات بزوجها أولًا وبمأمور القسم ثانيًا حتى تركاه، ورأينا المخبرين يخرجان من العمارة، فقال صبري أبو علم لهما غاضبًا: ما الذي حدث، واحد أخطأ في الشقة؟! فقال أحدهما: وما ذنبنا نحن؟!

في صناعة المحاماة

خبر طريف ومثير يعلن عن مكتب دولي للاستشارات القانونية، محام يعمل معه نخبة من أكفأ رجال القانون، قادرون على ضمان البراءة في جميع القضايا: القتل، والمخدرات، والسرقة والنصب، والتزييف والتزوير، والإفلاس، والشيكات والكمبيالات وإيصالات الأمانة، والإيجارات والعقود، إلخ..

دعوة صريحة من المكتب الدولي للاستشارات هذا، بأن تقتل وتتاجر في المخدرات، وتسرق وتنصب وتزيف وتزور، وسوف ينجيك هذا المكتب العجيب، فهو يضمن لك البراءة.

وكان يحدث قبل ثورة يوليو ٥٢، أن يتشاجر ريفي مع آخر، فيقول له: ديتك مبلغ كذا، أقتلك وأدفعه للهلباوي فيطلّعني براءة.

وإبراهيم الهلباوي كان من أفضل المحامين الذين أنجبتهم مصر، فصيح لدرجة أنهم ضربوا به المثل في الأفلام المصرية القديمة، يقولون أنه قادر أن يؤثر على هيئة المحكمة، فيحكمون بالبراءة على الجاني.

وظهر محام آخر منذ عشرين عامًا أو أكثر، اشتهر بأنه يأتي بالبراءة للقتلة، معتمدًا على ثغرات في القانون.وقد أخطأت أخت ساعي يعمل في

شركتنا مع ابن رجل غني في عزبة قريبة من شركتنا، فاتفق الرجل مع أسرة الفتاة على أن يدفع لهم مبلغًا من المال كتعويض، وأن يقتلها أخوها، ويدفع الرجل الغني أجرة هذا المحامي المشهور، الذي سينجي الفتى حتمًا من الإدانة، فهو بارع في التشكيك في الإجراءات.

ظلت هذه المسألة تشغلني، وأتحدث فيها مع زميلي المحامي بالشركة، أقول له: ربنا بيقول "ولا تكتموا الشهادة" وأنتم تسألون المتهم بينكم وبينه: "اصدقني القول، أنا محاميك" فيعترف بأنه القاتل فعلًا، فتقوم بالدفاع عنه، أليس هذا حرامًا ومخالفًا لأوامر الله بألا تكتموا الشهادة؟ فيقول لي: إنه عملنا، أكل عيشنا.

وأذكر عندما سرق دكان أخي في المنشية، وقبضوا على اللصوص، كان معهم شاب محامي، يتحرك في خفة في مبنى المحكمة، وتناديه أم أحد من اللصوص وهي جالسة: ولد يا كذا.فيسرع إليها، وينحني ليسمع تعليماتها.إنه جارهم وصديقهم، هم اختاروا السرقة وهو اختار المحاماة ليدافع عنهم، يعني محامي ملاكي لهم.

وقد خلا مقعد في مجلس إدارة هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية، وكنت أشتغل وقتها أمينًا للصندوق، وتناقشنا في ذلك، وعرضت أن نساند أديب صديق، فسألني أحد أعضاء مجلس الإدارة عن عمله الأصلي فقلت محام، فصاح في حدة: لا، المحامي لا

تصاحبه ولا تناسبه ولا تسكنه بيتك، دا إذا قابلته في الشارع وصبحت عليه، يعمل لك قضية.

ويحكي لي عن المحامي الذي ذهب ليصلي الجمعة في أحد المساجد، فسمع الواعظ يتحدث عن الكاتب نصر حامد أبو زيد، فخرج ورفع قضية حسبة ضده، وأذاقه الويل لسنوات طويلة.

ضحكت وقتها، فقد كان محدثي من أسرة إقطاعية مشهورة في البحيرة، ووالده خريج كلية الحقوق وشغل وزارة العدل لمرات عديدة، أو الحقانية كما كانوا يسمونها وقتذاك.

كنت أتحدث كثيرًا مع زميلي المحامي بالشركة، عن مسرحية (رأس الآخرين) للكاتب الفرنسي (مارسيل إيميه)، وهو أول سيناريو يكتبه (وحيد حامد) للسينما، باسم (طائر الليل الحزين)، وعرض الفيلم في ٢٣مايو ١٩٧٧.

تحكي المسرحية عن وكيل النيابة (فريدريك مايار)، الذي حقق نصره الثالث بأن حظي بحكم بالإعدام على ثالث ضحية له، فأقام صديقه (بيرتوليبه) حفلًا في بيته بهذه المناسبة ودعا إليه معارفهم.

بيرتوليبه وكيل نيابة مثل مايار، لكنه لم يحظ بهذا الشرف، أن يرسل ثلاثة رجال إلى الإعدام، فيقول لزميله وصديقه: أنت فنان في اصطياد الرؤوس.

تقف زوجة مايار سعيدة وفخورة بزوجها، الذي ينسحب معتذرًا بقضاء بعض الأعمال العاجلة في بيته، وسوف يعود بعد الانتهاء منها.يركب سيارته ويذهب إلى بيته، وتتبعه روبرت (عشيقته وزوجة صديقه بيرتولييه)؛ ليتقابلا في البيت بعيدًا عن زوجها، وبعيدًا عن زوجة مليار.

لكن فالورون –المحكوم عليه بالإعدام– يظهر عليهما مشهرًا مسدسه، وقد هرب من العربة قبل أن تصل به إلى السجن، من الحوار نكتشف أنه لم يرتكب جريمة قتل السيدة العجوز المتهم بقتلها، فقد كان وقت حدوث الجريمة برفقة روبرت زوجة وكيل النيابة بيرتولييه في أحد الفنادق المعروفة، وتحت ضغط فالورون ومسدسه تؤكد روبرت على قوله.

لقد تأكد مايار أنه سيتسبب في إعدام بريء، فماذا يفعل؟ هل يصحح مسار القضية، ويخسر لذة انتصاره في عمله، أم يتغاضى عن المعلومات الجديدة التي ستبرأ هذا المسكين؟!

ويحاول بيرتولييه أن يحل المشكلة ولا يفضح زوجته، بأن يقوم البوليس بالزج بشاب عربي يعيش في فرنسا، فيعذبونه إلى أن يعترف باقتراف جريمة لم يرتكبها.

وتؤجر روبرت اثنين من القتلة للقضاء على فالورون، لكنهما يخطئان الهدف، ويحاولان قتل مايار، وعندما ينجو مايار من هذه المحاولة يستيقظ ضميره، ويصحح الخطأ الذي ارتكبه.وعن طريق القتلة المستأجرين يعرف

اسم القاتل الحقيقي، ويكشف عن شبكة تستغل الفساد الذي استشرى في البلاد

ثري يأوي المجرمين، ويتسلط بثرائه وعصابته على الأحزاب ورجال الحكم، ويرهب القضاء ورجال الحكومة، وهو بذلك يبسط سيطرته على كل شيء في البلاد، عن طريق عصابته من المجرمين والشذاذ الذين يجمعهم حوله، ومن بين هؤلاء المجرمين القاتل الحقيقي في الجريمة التي كان قد اتهم فيها فالورون، ثم الشاب العربي ظلمًا.

كنت أتحدث كثيرًا عن هذه المسرحية وأقول لصديقي المحامي: تخيل ما يحدث، حفل في بيت وكيل النيابة للحكم على شخص بالإعدام، بينما بيت المتهم في حالة حزن وأسى.

هذه هي المشكلة، كيف ينام وكيل النيابة أو المحامي أو القاضي، وقد ظلم إنسانًا من أجل أن يقولوا عنه إنه موظف ناجح.

وقد رفع زميل لنا قضية ضد الشركة، كان يعمل تليفونست، يرد على المكالمات التليفونية ويحول الخطوط للعاملين، طالب زميلنا هذا في دعواه ببدل سماعة، مبلغ ضئيل يضاف على راتبه الشهري من أجل خطورة استعماله للتليفون طوال الوقت، لكن الشركة انتدبت محامية لتقف أمامه وتقول إنه لم يعمل على التليفون، بل كان مجرد ساع بالشركة، وهو يقول لها أمام القاضي: أنا –يا مدام فلانة– كنت ساع؟! مش كنت كل يوم تطلبين مني مكالمات خارجية لتتحدثي مع زوجك وأخوتك؟! فتقول في

عناد: لا، أنت كنت ساع.وانتشر الخبر في الشركة بعد أن نقلوه بالفعل إلى قسم السعاة، كل العاملين يعلمون أنه كان يعمل على التليفون.

هكذا كانت زميلتنا المحامية، ودودة ومؤدبة في معاملتها، لكن في عملها مثار للدهشة والعجب، الكل يشكو منها، تكذب وتخفي مستندات، وتدعي على الذين يرفعون قضايا على الشركة أشياء لم تحدث، قالت لواحد منهم -بعد أن ظلمته، وقدمت أوراق كاذبة لكي يخسر القضية-: اوعى تدعي عليه.

ما الذي ستكسبه من ظلمها للآخرين؟ أن يقولوا عنها إنها محامية شاطرة، أو ربما تنتظر مكافأة ستدفعها الشركة لها في حالة أن يخسر زميلها قضيته.

قلت لها عندما جاءت إلى إدارة الحسابات التي كنت أعمل بها، لتتسلم شيكها، بعد أن خرجت معاش مبكر: نصيحة، لا تعملي في المحاماة ثانية.فضاقت بقولي، وأحست بما أريد أن أقوله.

وهذا يذكرني بأسطورة أمريكية تقول: إن أهل الجحيم قد ثاروا وحطموا جانبًا من السور الذي يفصل بينهم وبين أهل النعيم، فنادى الملاك المكلف بحفظ السور على كبير الشياطين: إنني في حاجة إلى مهندسي التنظيم لبناء السور، وكلهم عندك.

فامتنع كبير الشياطين عن إرسالهم له، فثار الملاك الحارس قائلًا: سأرفع الأمر إلى القضاء.

فضحك كبير الشياطين قائلًا: لا تتعب نفسك يا سيدي، فلن تستطيع رفع الدعوى، لأن جميع المحامين عندي أيضًا.

الذين يجيدون الكلام

اكشتفت المخابرات السوفيتية مسؤولًا مهمًا يعمل جاسوسًا لصالح أمريكا، فسألوه عن السبب الذي أعانه على التخفي وتأخرهم في القبض عليه فقال: لم أكن أفعل شيئًا سوى أن أختار للمناصب القيادية أسوأ من يتقدم.

ونحن نختار لكل منصب أسوأ المتقدمين، نفعل هذا دون أن نكون خونة أو جواسيس، نفعل هذا متأثرين باللقاء الأول، ونختار المسؤولين من خلال أحاديثهم في التليفزيون.

وهذا ما قاله المسؤول عن حريق مسرح قصر ثقافة بني سويف في نص تحقيق النيابة العامة، قال: إن سبب اختياره لهذا المنصب أن السيد الوزير شاهده يتحدث على شاشات التليفزيون أكثر من مرة فأعجب بفكره وبطريقته في الكلام.

ذكرني هذا بعدة أفكار رأيت أن أسردها عليكم، أولها ما حدث في الشركة التي كنت أعمل بها، فقد تعين زميل لنا (خريج كلية تجارة) في الإدارة المالية، وقابل المدير المالي في حجرته، فتحدث عن المداد الأحمر والمديونية والدائنية، وعن حساب البنك وعن أشياء أخرى كثيرة، فأعجب

المدير المالي به وأرسله إلى الحسابات، واتصل بمديرها قائلًا: حبعت لك شاب رأسه كله حسابات.

وجاء زميلنا هذا فاشرأبت الأعناق لرؤيته، فمنظره يوحي بأنه محاسب خطير، بنظارته وحقيبته المنتفخة، وقال مدير الحسابات لمساعده : جاء في الوقت المناسب، فدفتر البنك في حاجة لمحاسب محنك.

وأمسك زميلنا دفتر البنك الذي يقيد فيه الشيكات الصادرة والواردة إلى شركتنا، ويقدم آخر الشهر الموقف المالي للشركة، فإذ به يتوه وسط أوراق البنوك والشيكات وقيود اليومية والمستندات الأخرى، وتأخر في إصدار التسوية النهائية، فظن مدير الحسابات أن عبقريته ستظهر بعد أشهر قليلة يكون فيها قد تعود على العمل، لكنه ظل كما هو تائهًا حائرًا، يأتي البعض لمساعدته لضبط دفتره وإصدار التسوية النهائية التي يستعجلها المدير المالي من وقت لآخر.فأسند إليه مدير الحسابات عملًا أقل شأنًا حتى وصل إلى أقل الأعمال، والتي كانوا يسمونها بـ(الرابش ورك)، لكنه خاب في إنجازه، فكان لنا زميل طيب، يأخذ الأوراق ويسويها في بيته ويعطيها له، فيقدمها إلى المدير مدعيًا بأنه هو الذي أنجزها.

وظل زميلنا دون عمل، فكل عمل يقوم به يفسده، إلى أن انتقل إلى شركة أخرى خدعت بشكله وحديثه المنمق وكلماته المتلاحقة، ونظارته وحقيبته التي لم أره يحمل فيها غير سندوتشاته.أقصد بحكايتي هذه أن أقول إن القدرة على الحديث لا تؤكد –بالضرورة– أن صاحبها يجيد العمل.

وكان معنا رئيس شركة يختار مساعديه من خلال حفل الإفطار السنوي الذي تقيمه الشركة في شهر رمضان، فيخطب زميل لنا أمامه فيسرع بتعيينه في مركز مهم، ويكتشف بعد ذلك أنه لا يستحق هذا.

وذكرني هذا أيضًا بأستاذ جامعي كان يطل علينا كل يوم في البرامج التليفزيونية فيتحدث بقدرة عجيبة، وكان –للحق– متأنقًا بطريقة تلفت الأنظار، وقتها قلت: الراجل دا عايز يبقى وزير، وبالفعل أصبح وزيرًا لوزارة تم الاستغناء عنها بعد ذلك، وارتحنا بعدها من أحاديثه المنمقة وكلماته المتلاحقة.

وفي إذاعة الإسكندرية انتقل مخرج للتمثيليات من إذاعة القاهرة، كان محبًا للحديث، يناقش النص المقدم من المؤلف ويذكر المؤلفين العالميين خاصة في المسرح، ويسهر في بيته أو في بيت المؤلف ل(وش الصبح)، يتحدث عن النص المقدم ويناقشه كلمة كلمة، ويكاد يكون هو مؤلف العمل. وقد فعل هذا عدة مرات إحداها عندما اقترب من ضابط شرطة كبير كان في حاجة إليه؛ ليعينه على أن يدخل ابنه كلية الشرطة. فاقترح عليه أن يؤلف مسلسلًا إذاعيًا للإذاعة، وسهر معه ليال طويلة في بيت ضابط الشرطة وفي بيته، إلى أن انتهيا من المسلسل، ومرة ثانية مع صحفي كان مديرًا لمكتب مجلة مشهورة، وبالطبع لم يكتب ضابط الشرطة ولا الصحفي تمثيليات مرة أخرى.

وكان هذا المخرج –رغم فصاحته وكلماته المتلاحقة– عندما يدخل الاستوديو ويجلس على مقعد الإخراج يتوه ويفقد أعصابه ولا يستطيع السيطرة على الممثلين.

ويقولون أن حزبًا من الحزبين الكبيرين المشهورين في أمريكا، تقدم لانتخابات الرئاسة بمحام وسيم الطلعة ذي جسد عملاق وحضور طاغ، وكان يجيد التحدث في الجماهير، ونجح في الانتخابات ودخل البيت الأبيض، لكنه لم يكن يجيد سوى الاحتفاء برسائل المعجبين والمعجبات والرد عليها، فإمكانياته لا تزيد عن ذلك، وأكمل مدته (بالعافية)، ولم يتقدم ثانية لمدة ثانية.

ورسولنا الكريم يقول: "إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة". قالوا: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: "إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

وفي الوسط الأدبي بالإسكندرية مجموعة تعشق الحديث في الندوات، فتستطيع أن تتوقع من سيطلب الكلمة بعد انتهاء المحاضرة، فلا بد أن يبدأ فلان بالحديث، فيشكر الضيف، خاصة لو كان من القاهرة، ويتحدث بكلمات ليس لها معنى ولا تضيف جديدًا، وحدث أن جاء أحد هؤلاء متأخرًا وجلس بجانبي وقد ضاع منه ٩٩% من حديث المحاضر، فسألني عن أهم ما قاله، ثم أسرع بطلب الكلمة وعلق كعادته.

وقد رأيت أحدهم يجلس متململًا؛ لأنه لا يجد ما يقوله أمام الضيف الكبير القادم من القاهرة، فاقترحت عليه ما يقوله، فوقف وقاله سعيدًا منتشيًا، وهؤلاء ليسوا أهم كتاب الإسكندرية بل هم أقلهم شأنًا، ومعظمهم لم ينشر كتابًا واحدًا، ولم ينشر قصة أو قصيدة أو مقالة في مجلة أو جريدة ذات شأن.

الغريب في الأمر أن هؤلاء هم الذين يديرون الندوات في قصور الثقافة والمراكز الثقافية الأخرى.

الأشراف في مصر

فوجئت بخبر منشور بعدد جريدة الأخبار الصادر في ١٥ سبتمبر ٢٠١٠، بأن نقابة الأشراف قد أقامت دعوى ضد مسلسل (شيخ العرب همام)، تطالب فيها بوقف عرض المسلسل. ظننت أول الأمر أن الذي أقام الدعوى قريب غاضب لشيخ العرب همام؛ لأنهم صوروه في صورة تسيء إليه وإلى أسرته، كما حدث في مسلسلات كثيرة تناولت حياة النجوم، مثل ليلى مراد وسعاد حسني وعبد الحليم حافظ، لكنني اكتشفت أن نقابة الأشراف معترضة؛ لأن الكاتب والمخرج والممثلين قد جرؤوا وسمحوا للممثل يحيي الفخراني –الذي يقوم بدور شيخ العرب همام– أن يقول لأهل بلده في الحلقة الثالثة عشر من المسلسل: أنتم جدودكم جعافرة حسينيين أشراف.

فاعتبرت نقابة الأشراف أن ذلك خلط للحقائق دون سند من الواقع ودون تحقيق متعمق ودون دليل واحد على صحته. فكيف يجرؤون على الزج بمن هو ليس شريف، ويدعون أنه كذلك ؟!

قضية تشغل وقت القضاة المحملين بالأعباء والذين ينظرون في آلاف القضايا التي يبحث أصحابها عن حقوقهم، بعضهم موقوف عن العمل ولا يجد دخلًا ينفق منه، وبعضهم حقه ضائع سلبه ظالم.. إلخ.

دهشت من هذا، فقد قرأت عن الكثيرين من السادة الحكام العرب الذين ادعوا أنهم من سلالة النبي مُحَمَّد (عليه الصلاة والسلام)، ومن نسل الإمام علي (كرم الله وجهه)، فقد كنت في العراق في أحد المؤتمرات الأدبية، وكانت الجرائد العراقية الثلاثة (جريدة الثورة لسان حال حزب البعث، وجريدة القادسية لسان حال الجيش العراقي، وجريدة الجمهورية) تقدم إلينا كل صباح في حجرات الفندق الذي نقيم فيه، وإذ بها كلها تتحدث عن احتفال سيقام اليوم في ذكرى مولد الإمام علي، تحت رعاية حفيده صدام حسين. هكذا ولم يعترض أحد لا في العراق ولا في غيره، وأصبح بقدرة قادر صدام حسين من سلالة سيدنا مُحَمَّد.

والملك فؤاد –الذي كان لا يعرف العربية– ادعوا بأنه من سلالة النبي مُحَمَّد، وأرادوا أن يكون خليفة المسلمين بعد أن أنهى مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في تركيا، وما دام فؤاد من سلالة النبي، فابنه فاروق لا بد أن يكون كذلك.

وقرأت كثيرًا عن الثورة العربية التي قادها الشريف حسين ضد الاحتلال العثماني في الحرب العالمية الأولى، والتي انتهت بهزيمة العثمانيين، وانتصار الشريف حسين، وخروجه من أرض الحجاز، وتولى ابنه الصغير فيصل حكم العراق، وابنه الأوسط عبد الله حكم الأردن، باسم المملكة الأردنية الهاشمية، بما يعني أن الشريف حسين من الهاشميين.

وقد ظلت البلاد الإسلامية منذ حكم النبي مُحَمَّد، وحكم الخلفاء الراشدين، ثم حكم الدولة الأموية والعباسية= تخضع لحكم القرشيين، اعتمادًا على حديث الرسول: "الأئمة من قريش"، وبعد حكم العباسيين كان لا بد أن يكون الحاكم من الهاشميين، ولو كان مجرد رمز، حتى إن في أواخر أيام الدولة العباسية، كان الوزراء هم الذين يتحكمون في كل شيء، حتى في الخليفة العباسي نفسه، لكن لا بد أن يكون الحكم أمام الناس لرجل من الهاشميين. والذين انفصلوا عن الدولة العباسية في الدول التي كانت تابعة لها، لا بد لهم من خطب ود الخليفة العباسي وطلب رضاه بالمصاهرة أو بأي شكل آخر.

وفي مقالة للأستاذ الدكتور أسامة فوزي يقول عن الشريف حسين إنه رجل تركي ينحدر من جدة يهودية تزوجها (محسن) وأنجب منها ابنه (جدعون)، الذي يعرف بين العرب باسم (عون)، ومنه انحدرت الأسرة الهاشمية التي حكمت في العراق والأردن والحجاز، واليهودي كما هو معروف ينسب إلى أمه، فابن اليهودية حتى لو كان أبوه عربيًا أو مسلمًا يعتبر وفقًا للديانة اليهودية يهوديًا.

ويلقب حسين بن علي بالشريف؛ لأنه تولى الإشراف على الحجاز بتوصية من ضباط حزب الاتحاد والترقي التركي، وأكثرهم من اليهود، يعني لم يكن شريفًا لأنه من الهاشميين، وإنما لطبيعة عمله، لكن الكل يدعي أنه من الأشراف.

ومن المعروف أن ملوك المغرب منذ الملك مُحَّد الخامس ينتسبون إلى الإمام علي بن أبي طالب، ومليكة أوفقير في كتابها عن رحلة سجنها هي وأمها وإخوتها بعد مقتل والدها الجنرال أوفقير، تقول إنها من عائلة أصولها من عين الحوت في الجزائر، حيث إنها تنتسب إلى الأشراف السليمانيون.

وقد كنت أعرف فرانًا في فرن قريب من بيتي يحتفظ بشهادة تثبت أنه من الأشراف، ويقولون أن أم كلثوم قد حكت بأنها عندما غنت قصيدة شوقي (سلوا قلبي) بكت وهي تقول:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري .... بمدحك، بيد أن ليَ انتسابا

وذلك لأنها من سلالة الرسول، وشوقي مؤلف القصيدة يقول عن نفسه ذلك أيضًا.

لقد كان آخر نقيب للأشراف في مصر السيد مُحَّد الببلاوي، لكن بعد موته عام **١٩٥٣** لم يعين جمال عبد الناصر نقيبًا غيره، على أساس أن كل البشر متساوون، ولا فضل لأحد على الآخر إلا بالعمل. وظل الوضع على ما هو عليه إلى أن أصدر الرئيس حسني مبارك قرارًا جمهوريًا بتعيين السيد محمود كامل يس نقيبًا للأشراف في فبراير **١٩٩١**، وبهذا قد عادت نقابة الأشراف إلى ما كانت عليه.

وبمناسبة الحديث عن نقابة الأشراف لا بد أن نتطرق إلى أهم نقيب للأشراف في تاريخ النقابة، وهو مُحَّد توفيق البكري، فقد كان شاعرًا وأديبًا يجيد لغات عديدة، وكان له دور في السياسة والمواقف المشهورة، فقد تم

زواج صفية ابنة الشيخ السادات في بيته، على الشيخ علي يوسف بعدم رضا أبوها، فصفية كانت أخت زوجته، وهي حادثة مشهورة تحدثت عنها الصحف طويلًا، كما أن البكري كانت له حكايات مع الخديو عباس حلمي، فهو المحرض على كتابة القصيدة الشهيرة في هجاء عباس حلمي والتي مطلعها:

قدوم، ولكن لا أقول سعيد	علـى فـاجر هجـو الملـوك يريـد
لأضرابه بيت من اللؤم عامر	وملـك وإن طـال المـدى سـيبيد

وقد كان الخديو عباس حلمي يخشى البكري ويحترس منه؛ خشية أن يعينه اللورد كرومر (المندوب السامي البريطاني في ذلك الوقت) حاكمًا لمصر بعد خلع الخديو، فقد بلغه مدى إعجاب كرومر بالبكري، فهو يثني عليه حتى في غيابه، فدبر عباس حلمي مؤامرة للوقيعة بينه وبين كرومر، فأرسل حفني ناصف إلي بيت البكري ليناقشته في الأدب، فقال حفني ناصف له: معذرة فأنت نقيب الأشراف، لكنك لست حاذقًا في كتابة الشعر.

فغضب البكري، وتحداه بأن يكتب كل منهما قصيدة في موضوع معين، وينظرا من الأجود فيهما، فاشترط حفني ناصف أن يكتبا في مواضيع غير مطروقة، أن يكتبا في الغزل في المذكر مثلًا، فوافق البكري، وكتبا قصيدتين، فأمسك حفني ناصف الورقتين، وشهد للبكري بالجودة والتفوق عليه، وتظاهر بتمزيق الورقتين، لكنه مزق ورقته، ودس ورقة

البكري في ملابسه، وسلمها إلى الخديو الذي سلمها لكرومر، قائلًا له: هذا الذي تعجب به يعترف بالشذوذ بخط يده.

فغضب كرومر من البكري، ولم يعد يدعوه إلى الحفلات الرسمية التي تقيمها السفارة، ولم يعد يذكره بالخير في غيابه كما كان يفعل، وبهذا أمن الخديو عباس حلمي من خطر مُحَمَّد توفيق البكري نقيب الأشراف[٢].

[٢]- فهمي ماهر حسن، أعلام العرب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، إبريل ١٩٦٧.

حقوق المرأة في مصر

كتبت مقالة بعنوان: (لماذا لا ننشئ المجلس القومي للرجل؟)، فأبديت دهشتي فيها مما يحدث في هذه الأيام من تصاعد دور المرأة في المجتمع.

لكنني لم أكن موفقًا في توضيح ما أريد قوله، فالموضوع بالنسبة لي متداخل، ويشبه كرة خيط اشتبك بعضها ببعض، وصار من الصعب فكها وإزالة عقدها الكثيرة. فإننا نسمع كل يوم عن حقوق المرأة من سيدات يكسبن من هذه القضية، ويطالبن بأشياء بعيدة عن القضية الحقيقية. وضعهن يذكرني بما كان يحدث أيام حسني مبارك، إذ يهتمون بأطفال من نوعية خاصة عن طريق إصدار كتب لهم، وبرامج تليفزيونية وحفلات، وأطفال آخرين –يعيشون في مصر أيضًا– وهم في أشد الحاجة للرعايا ولا يهتم بهم أحد، كنت أندهش، فإنهم يراعون أطفالًا ليسوا في حاجة لرعايا، وأطفال الشوارع يزدادون وحالتهم تزداد سوءًا، وأطفال فقراء لا يجدون الغذاء المناسب والكافي لهم. وهناك من يجبرهم على العمل وهم صغار، ويعيشون في أحياء وبيوت تسبب لهم أمراض ومشاكل نفسية.

المرأة في مصر مظلومة، وصعب أن تنال حقوقها بهذه الطريقة التي تتبعها سيدات النوادي والجمعيات الخيرية، الموضوع أكبر من هذا بكثير.

فقد شاهدت في التليفزيون دكتورة في الجامعة تتحدث عن مشاكل المرأة الحقيقية، فقلت وأنا جالس وحدي في البيت: "الله يفتح عليك"، فقد عبرت عن المشكلة بصدق، حكت عن الأم التي تخص ابنها بقطع اللحم الكبيرة من دون أخواته، وعن المرأة عندما تلد بنتًا وكيف يتجاهلونها، حكت عن أشياء أعيشها، قلت لنفسي: أكيد هذه الدكتورة الفاضلة من أصول ريفية.

وتذكرت عندما كنت أتشاجر مع أختي التي تكبرني بعام ونصف العام، فيأتي والدي فيسبها وينهرها، رغم أنني المخطئ الذي يستحق اللوم والعقاب. وإذا أراد أبي أن يلومني على ما فعلت، يأخذني إلى القهوة التي يجلس عليها، ويعاتبني ويلومني، فعيب أن يصغرني أمام أختي الكبيرة.

وقد كنا نعيش بلا أم بعد موت أمنا عام ١٩٥٦، فتأتي جارة رشيدية طيبة لتفض الاشتباك بيننا، وتقول مبتسمة: أنا عرفاكم يا صعايدة، تنصرون الولد دائمًا.

وأتذكر أقاربي الذين يعاملون ابنهم الوحيد على خمس بنات وكأنه إله، وعندما ضاق بخطيب أخته الكبيرة، قالت أمه: سأطرد الخطيب، المهم ابني.

وحدث هذا رغم تعلق البنت به، ورغم أنه لم يحدث منه شيء يغضبه أو يغضبهم، لكن ابنهم تعود أن يكون الشاب الوحيد في الشقة، فجاء خطيب أخته ليأخذ منه بعض الاهتمام.

وشكا لي صديق بأن ابنته ولدت عنده، في بيته -كعادة الزوجات في مصر- وتأخر زوجها وأمه في زيارتها، والاطمئنان على صحتها وصحة المولود ليومين كاملين، فقد بلغهما أنها أنجبت بنتًا، ولو كان المولود ذكرًا، لأسرعا في الحضور واحتفلا بالمولود.

والمعروف في الصعيد أن معظمهم لا يورثون البنات، فعيب أن تنتقل ملكية أراضيهم إلى غريب. وأذكر عندما جاء ابن خال أبي ليشتري منهم ميراث أمهم، أعطاهم مبلغًا أقل من ثمن الأرض بكثير، فقلت لأبي: لماذا تقبلون بهذا؟! فقال لي: هو إحنا طايلين منهم حاجة!

فلا يمكن أن يشكوا خالهم أو أولاده من أجل ميراث أمهم، لكن لو كان الميراث من ناحية الأب لا يتركونه، ويلحون في طلبة بكافة الوسائل.

فعيب أن يطالب الرجل بميراثه من أمه، وكارثة لو طالب الزوج بميراث زوجته من إخوتها، ومن يجسر ويجرؤ على هذا يعد في ملتهم واعتقادهم رجلًا فاجرًا لا يخجل ولا يستحي، ويريد أن يعيش من مال زوجته.

لقد تربت الفتاة في الريف والأحياء الشعبية على أنها أقل من الذكر، أي ذكر ولو كان غريبًا عنها، وهناك مشهد في قصة ريا وسكينة التي سردها الأستاذ صلاح عيسى في كتابه (رجال ريا وسكينة) في صفحة ٢١٣، عندما ذهبت زينب (أم نظلة أبو الليل) التي قتلتها عصابة ريا

وسكينة لتسأل عن ابنتها، فقال حسب الله (زوج ريا) لها: الواحد لسه صغار، ورايحين تتهموه بتهمة وحشة زي دي.

فأجابته المرأة المكلومة على غياب ابنتها: حد الله بيني وبين الظلم، أنا حتى إن شفت بنتي مدبوحة في بيتك، أدوس عليها برجلي ولا يمكن أرمي شبابك في ضيقة.

هذا هو إحساس النساء تجاه الرجال، فهي تراه أكثر أهمية من ابنتها؛ لأنه رجل. هذه هي المشكلة، وعلي الذين يريدون أن يحققوا المساواة بين الرجل والمرأة أن يبدؤوا من هنا، أن يغيروا مفاهيم السيدات اللاتي تربين في الريف وفي الأحياء الشعبية في المدن.

هناك صورة مشهورة لعبد العال مع زوجته سكينة، منشورة في الكتاب الذي تحدثت عنه، ونشرت كثيرًا في الصحف والمجلات: عبد العال يجلس على مقعده كالملك، وزوجته برداء الزفاف تقف بجواره، هذه الطريقة في التصوير كانت شائعة في تصوير الزوج والزوجة، والأخ والأخت.. إلخ في ذلك الوقت والأوقات التالية له، الرجل جالس كالملك والمرأة واقفة بجواره. ومن المعروف في لقاء الأسر في الريف والأحياء الشعبية في المدن، أن تقف المرأة احترامًا عندما يهل عليها رجل من الأسرة. ولو كانت المقاعد محدودة، تقف وتترك له مقعدها ليجلس، وتظل هي واقفة.

وقد قرأت عن حادثة رهيبة كانت منشورة في مجلة (كتب للجميع)، عن رجل قتل زوجته ودفنها في البيت مع فراشها، وعندما حكم عليه القاضي بالإعدام شنقًا، قال: كيف أقتل من أجل امرأة؟!

وقد حدث لي منذ أيام قلائل أن حملت كيسًا كبيرًا مملوءًا بالزبالة؛ لكي أرميه في الصندوق بالشارع الذي يلي شارعنا، وقابلتني أخت زوجتي –وهي ابنة عمي في نفس الوقت– فأصرت على حمله ورميه بدلًا مني؛ لأنه عيب أن أحمله هكذا.

وكلما فكرت في هذا الموضوع، أتذكر الرجل المسن القصير، الذي كان يرتدي بذلة صيفية من قماش (الووتر بروف) ويحمل راديو كبير يعمل بالحجارة، وقد ركب من محطة مصر الترام الذاهبة إلى النزهة، وصوت مطربة الإسكندرية المشهورة بدرية السيد يلعلع من الراديو:

من فوق شواشي الدرة جمرية بتغني فرحانة يا هل ترى ولا بتتمني

ولا دي حنية في القلب متوية، احكي يا جمرية

اقتربت أنا وأصدقائي منه، فرفع صوت الراديو سعيدًا، وعندما أحس باستحساننا لصوت بدرية السيد قال: بس ربنا يعمي أم كلثوم عنها، وما تقتلهاش زي ما قتلت اسمهان.

ونظر إلى امرأة عجوز أطول منه بكثير، وجهها مكرمش مثل وجهه، تلتف بملاءة سوداء، وصاح من وسطنا فيها: تعالي هنا يا بنت. فأسرعت مذعورة ووقفت بجواره.

الفتاة في هذه المناطق تربى منذ أن تولد على أنها خلقت من أجل الرجل، إن كان والدها أو أخوها أو زوجها.

لماذا لا نطالب بعودة واحة جغبوب وأم الرشراش إلى مصر؟!

كان المرحوم الأستاذ محسن مُحَّمد الأسبق في الانتفاع بنشر الوثائق البريطانية، بعد الفترة المحددة من تداولها بواسطة الجهات الرسمية. وكتب من خلالها عدة كتب منها كتابه (سرقة واحة مصرية) الذي نشر في عام ١٩٨٠ عن سلسلة كتاب اليوم، ووقتها كنت أول مرة أسمع عن واحة جغبوب، وقرأته فور صدوره وتأثرت به كثيرًا، وكنت اتساءل لماذا سكتنا عن المطالبة بحقنا في ملكية هذه الواحة، وسمعت عنها بعد ذلك من أقاربي الذين التحقوا بالجيش، وكانوا يخدمون في غرب الإسكندرية.

وجغبوب واحة تقع غرب واحة سيوة، وجنوب غرب السلوم بحوالي ٢١٣ كيلومترًا، في منخفض مساحته تقدر بحوالي ٥٦ كيلو مترًا، وتبعد عن جنوب شرق مدينة طبرق بمسافة ٣٠٠ كيلو متر. وتقع هضبة ليبيا شمال الواحة، وتحيطها التلال الرملية، وتغطي السبخات ما يقارب الثماني كيلومترات من مدخل المنخفض، ثم تبدأ الأرض بالارتفاع التدريجي كلما ذهبنا نحو بلدة جغبوب، التي تبعد عن المدخل بحوالي ٢٢ كيلو مترًا. أرض الواحة رملية وسط الصخور، وتتميز بارتفاع يصل إلى ١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

جزء صغير منها صالح للزراعة، جميع الطرق المؤدية إليها تحمل اسم مرب الإخوان، وذلك نسبة للإخوان السنوسيين.

وهذه الواحة شاهد على مساعدة الشعب المصري لليبيين في حربهم ضد الإيطاليين، خاصة أهالي مدينة الإسكندرية، التي كانت تضم الكثير من المغاربة، حتى إن هناك سوق باسمهم في حي بحري الشهير. فقد كان تجار الإسكندرية يجمعون الأموال من بعضهم البعض ويشترون بها السلاح، ويرسلونه إلى عمر المختار قائد المجاهدين ضد الاحتلال الإيطالي.

ويقول الدكتور مُحَمَّد فؤاد شكري في كتابه (السنوسية دين ودولة) إن مصر شكلت اللجان لجمع التبرعات، ولجنة عليا في ١٤ أكتوبر ١٩١١ برئاسة عمر طوسون، وجمعية الهلال الأحمر برئاسة الشيخ علي يوسف رئيس تحرير جريدة المؤيد، وقررت إنشاء مستشفيات ميدان. لكن اللورد كتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) رفض إرسال بعض فرق من الجيش المصري لمساعدة الأتراك الذين يدافعون عن ليبيا ضد المستعمر الإيطالي، كما رفض تطوع جماعة من الضباط المصريين في الجيش التركي، وصرف بعض مشايخ العربان عن رغبتهم فى الالتحاق بصفوف المجاهدين في ليبيا. وسهل الخديو عباس حلمي –في أول الأمر– إرسال الإعانات والبعثات إلى المجاهدين، لكن القوة الإيطالية انتصرت على الإمبراطورية العثمانية المنهارة، فأكمل المجاهدون الليبيون الطريق بمواصلة محاربة الإيطاليين وحدهم بقيادة البطل عمر المختار.

في ٢٥ مايو ١٩١٦ تم الاتفاق بين المعتمد البريطاني في مصر والسنوسيين، على أن يتولى السيد إدريس السنوسي إدارة واحة جغبوب الداخلة في الأراضي المصرية، وذلك بطريق الوكالة.

اكتشفت القوات الإيطالية أن سبب استمرار مقاومة المجاهدين الليبيين، هو وصول المؤن والسلاح من مصر إليهم، فاحتل الإيطاليون في ٢٩ مايو ١٩١٧ ميناء (البردية) الذي يقع غرب السلوم على مساحة ١٤ ميلًا. ولم تسترد مصر هذا الميناء مع أنه جزء من هضبة السلوم المصرية.

واستمرت المناوشات بين الإيطاليين والمجاهدين الليبيين في الجبل الأخضر طوال عامي ١٩٢٤-١٩٢٥ في عمليات حربية مائعة، وهي مناوشات قائمة على الكر والفر لا تؤدي إلى نتيجة حاسمة. فرأت إيطاليا ألا سبيل إلى هزيمة المجاهدين في الجبل الأخضر إلا بقطع الإمداد عنهم من الغرب والشرق، وحصرهم في منطقة الجبل الضيقة، وذلك باحتلال واحة جغبوب، الذي عن طريقها تصل الإمدادات المصرية إليهم. وبعد احتلال الواحة قضى الإيطاليون على المجاهدين الليبيين تمامًا.

واستمر الوضع على ما هو عليه، وضاعت واحة مصرية، ومل المطالبون بردها إلى حضن مصر، واعتبرت جزء من الدولة الليبية.

أما عن أم الرشراش، فهي قطعة من أرضنا المصرية، وقد كانت قرية صغيرة للصيادين احتلتها اسرائيل فى ٩ مارس عام ١٩٤٩، بعد ستة أشهر من الهدنة بين العرب واسرائيل عام ٤٨، وحولوها إلى ميناء إيلات.

وقد ذكر محمود رياض (أمين عام جامعة الدول العربية الأسبق) فى مذكراته، أن احتلال إسرائيل لمنطقة أم الرشراش لم يكن مجرد حدث

عادي، بل كان حدثًا مهمًا ترتب عليه العديد من الأحداث الجسام، ويشير إلى أن احتلال إسرائيل لتلك المنطقة كان يهدف أساسًا إلى فصل مصر عن المشرق العربي، وفقًا لرواية رئيس الوزراء الأردني توفيق باشا أبو الهدى، التي أقر بها في مؤتمر رؤساء الحكومات العربية، الذي عقد في يناير ١٩٥٥، عندما قال إنه عندما بدأت القوات اليهودية في تقدمها جنوبًا باتجاه خليج العقبة في مارس ١٩٤٩ لاحتلال أم الرشراش، جاءه الوزير المفوض البريطاني في عمان ليقول له إن حكومته ترى ضرورة استمرار المواصلات البرية بين مصر وباقي الدول العربية، وتقترح لذلك إرسال كتيبة بريطانية إلى مدينة العقبة لمنع اليهود من الوصول إلى الخليج.

حيث كانت الحكومة البريطانية ترغب في الاحتفاظ بخطوط مواصلاتها، بين قواتها في قناة السويس وقواعدها في الأردن والعراق والخليج. وقال أبو الهدى إن الكتيبة وصلت فعلًا إلى ميناء العقبة الأردني على أن تتحرك في الوقت المناسب؛ لوقف التقدم اليهودي، إلا أنها ظلت في ميناء العقبة دون أن تتحرك لتنفيذ المهمة المكلفة بها، بينما استمرت القوات اليهودية في تقدمها لاحتلال أم الرشراش.

وأوضح رئيس الوزراء الأردني أنه طلب من القائد الإنجليزي تفسيرًا لعدم تعرضه للقوات اليهودية إلا إذا اعتدت على الحدود الأردنية، ليكتشف بعد ذلك أن أمريكا ضغطت على الحكومة البريطانية؛ لتغيير سياستها في الحرب مع إسرائيل، والسماح للعصابات الإسرائيلية باحتلال

أم الرشراش. وهو ما يؤكد التواطؤ الأمريكي في عدوان إسرائيل، واستيلائها علي قطعة من أرض مصر بهدف الوصول إلي خليج العقبة.

والآن بعد نجاح ثورتي ٢٥ يناير ٢٠١١ و٣٠ يونيه ٢٠١٣، أما آن الأوان لكي نطالب بواحة جغبوب التي اقتطعت من جسد الوطن بفعل التلاقي بين الإيطاليين الذين يحتلون ليبيا، والبريطانيين الذين يحتلون مصر. وأم الرشراش التي حاول الغرب فصلها عن مصر مرات عديدة، فقد سقطت في يد الصليبيين أثناء الحروب الصليبية، حتى حررها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة بحرية طاحنة، وطرد الفرنجة منها، لكنهم عادوا إليها من جديد، ليتمكن السلطان الظاهر بيبرس من طردهم منها نهائيًا عام ١٢٦٧ ميلادية، واستردها فاستعادت مكانتها الدينية للحجاج، وأقام الغوري عليها قلعة لحمايتها كميناء مهم لمصر.

وتعود تسمية تلك المنطقة بـ (أم الرشراش) إلى إحدى القبائل العربية التي أطلقت عليها ذلك الاسم. وظلت تحت الانتداب البريطاني إلى أن سيطر عليها الإسرائيليون واحتلوها وطمسوا معالمها، وقاموا بتحريف اسمها إلى (إيلات)، وأصبحت تمثل لهم موقعًا استراتيجيًا مهمًا، حيث أن أكثر من ٤٠ % من صادرات وواردات إسرائيل تأتي عبر ميناء إيلات.

موسم الهجوم على جمال عبد الناصر

كنا فى مؤتمر أدبي فى أسوان، فخرجت من المركب الشراعية التي طافت بنا النيل قريبًا جدًا من السد العالي، فسمعت مذيعة برامج ثقافية فى إذاعة من إذاعات مصر تقول –وهي صاعدة الدرجات القليلة لتصل إلى الشارع–: ها هو السد العالي الذى أفسد مصر.

كنت قد سبقتها بخطوتين أو ثلاث، فنظرت خلفى مندهشًا، قلت: غريب أن يصدر هذا الكلام منك، وأنت مذيعة برامج ثقافية! ارتبكت ولم تجد ما تقوله. أكملت: هذا الكلام يقوله الناس العاديون الذين يتأثرون بما يقرؤون في الصحف. قالت: هم اللي بيقولوا كدا.

بعد أن مات جمال عبد الناصر هاجموا كل إنجازاته، تأميم قناة السويس لم يكن له لزوم، فقد كنا سنحصل عليها عام **١٩٦٥** دون قتال، ودون مشاكل كما نصّت الاتفاقية، والسدّ العالي حرمنا من السردين النيليّ، ألا تذكرون بائعه وهو ينادي: "سمن يا جماله"؟ ورائحته التي كانت تملؤ أنوفنا؟! والأفران تعمل ليل نهار؟!

كما أنه حرمنا من الطمي، فانتشرت الفئران التى أفسدت الأرض، وهاجمت البيوت. انتشار الفئران فى مصر، سببه بناء السد العالي! وصاح أحدهم: اهدموا هذا السد، وحاكموا الذين بنوه.

وتدفقت الكتب التى تهاجم عبد الناصر، كتب من كلّ لون، ولجنة رأسها صهر الرئيس السادات، تتلقى الشكاوى والعرائض التى تهاجم وتطالب بحقها من عبد الناصر الذي مات.

وحكى لي صديق، بأنه قابل الأستاذ ثروت أباظة في مجلة الإذاعة والتليفزيون؛ عندما كان يرأس تحريرها، وقد أعلن السادات أنه سيرفد كل صحفيّ يهاجم عبد الناصر، فتحدث صديقي مع ثروت أباظة الذي كان يهاجمه كثيرًا، فقال له: إننى حقًا سأرفد من هنا؛ لكي أرأس القسم الأدبيّ فى الأهرام.

وبالطبع هذه ترقية ، فالعمل في الثلاث صحف القومية (الأهرام والأخبار والجمهورية) في ذلك الوقت أملة لا يصل إليها إلا كلّ محظوظ، فقد كان مقرّ مجلة الإذاعة والتليفزيون شقةً يشترك معهم فيها مجلتا الكاتب والجديد.

كان السادات يدّعى أنه مستاء من الهجوم على عبد الناصر، وفي الحقيقة هو سعيد لهذا.

ومن تأثير الهجوم على جمال عبد الناصر في ذلك الوقت، أن كتب أحمد رجب في ١/٢ كلمة في جريدة الأخبار الصادرة في أول إبريل ١٩٧٥:

بعد أن غاب الأستاذ عبد الله عن مصر ١٤ عامًا. شعر في غربته بالحنين إلى الأصدقاء والأحباب، فكتب ٩٥ خطابًا إلى ٩٥ صديقًا، وبعد أن فرغ من كتابتها جميعًا تذكر أنه لا يعرف عناوينهم، فانتابته حيرة لم ينقذه منها سوى صديقه محمود، فقال: اكتب لهم على معتقل القلعة، زمانهم كلهم هناك.

وقد كنا نحن –الإسكندرانية– نفخر بمبنى البورصة، ذلك البناء الشامخ والعريق، فبورصة الإسكندرية لها دور اقتصادىّ عظيم، منها تدار الشركات فى مصر كلها؛ نظرًا لوجود الجاليات الأجنبية في الإسكندرية بكثرة. ومن هذا المبني حاول الإخوان المسلمين قتل عبد الناصر عام ١٩٥٤، ومنه أمّم قناة السويس.

وفي انتفاضة الغضب التى اجتاحت مصر من أسوان إلى الإسكندرية عام ١٩٧٧–والتى سمّاها السادات انتفاضة الحرامية– أحرق المتظاهرون هذا المبنى –الذي تحوّل بعد إلغاء البورصة إلى مقر للاتحاد الاشتراكىّ– حريق ظاهرىّ، لم يتعد أن أصاب طلاء الجدران، وكان القليل من الأسمنت سيعيده إلى ما كان عليه، لكنهم هدموه وحوّلوه إلى جراج؛ لأنه مرتبط بعهد عبد الناصر. فقد صنع هذا المبنى مجد عبد الناصر، فبدأت شعبيته

تتكون بعد محاولة اغتياله عام ١٩٥٤، واكتملت بعد تأميمه لقناة السويس عام ١٩٥٦.

في السنوات الأخيرة عادت هوجة مهاجمة عبد الناصر، والنيل من كل إنجازاته، فقد حضرت مؤتمر الرواية العربية الآن، في المجلس الأعلى للثقافة في فبراير ٢٠٠٨، فتحدث روائي سوري عن تجربة الوحدة بين مصر وسورية، فإذ بكاتبين عراقيين -أحدهما يعيش في ألمانيا والآخر في هولندا- يضحكان، ثم تبعتهما كاتبة فلسطينية كانت تدير الجلسة، مما أغضب الروائي السوري، وأكمل حديثه، فقال أحد العراقيين عن الوحدة: "بس ما تعملوهاش تاني".

في وقتنا هذا، الحديث عن الوحدة بين العرب مثار سخرية واستهزاء، والوطنية والقومية سبّة، والذي ينادي بهذه المبادئ يخسر كثيرًا، فلن يجد من يقف بجانبه، والذين يهاجمون عبد الناصر من الأدباء ينالون الشهرة والجوائز.

البرامج التي تبث من الفضائيات التي يمتلكها رجال الأعمال، تهاجم عبد الناصر طوال الوقت، وبطريقة سخيفة تدعو للأسى، فكلّ ما حدث من ثورة وتأميم وجلاء، كل شيء سيء! وما كان يجب أن يحدث، فالملك فاروق -طبقًا للمسلسل التليفزيوني الذي هدّ الدنيا- رجل طيب وصالح، فلماذا قامت ثورة عليه، وأيامه أفضل من أيام ما بعد الثورة؟! لدرجة أن سيدة طيبة عملت له عمرة حين سافرت إلى الأراضى الحجازية، والحقيقة

أن فاروق كان سيئًا وفيه كل العبر، كان مريضًا بالسرقة باعتراف أقرب الناس إليه، وكان يلعب القمار، ويعاكس النسوان.

وقد قرأت مقالةً يتحدث فيها ابن لشيخ فى المحكمة الشرعية، ضبط و زميله عام ١٩٥٥ في فيلا بمنطقة السيوف بالإسكندرية، مع ثلاث سيدات ممن لهن قضايا لديهما. فقال ابن الشيخ: إن والده كان فاضلاً وعظيمًا، لكنه وقف أمام واحد من رجال الثورة كان متزوجًا من أميرة من أسرة مُحَمَّد على وظلمها، فرفعت عليه قضية فى المحكمة الشرعية، فحكم الشيخ لصالحها، فدبّر له رجال الثورة هذه القضية، وألغوا المحاكم الشرعية.

كل القضايا التي نظرت أيام عبد الناصر مزوّرة ومصنوعة، محاولة قتله في المنشية حادثة مفتعلة، أراد بها أن يجد الفرصة ليصفي الإخوان المسلمين، كما أنه سبب كل الأزمات التى تعاني مصر منها الآن، التعليم فى أزمة؛ لأنه جعله بالمجان، وحديث الرسول ألا تعلموا أولاد السفلة العلم، فإن علمتموهم فلا تولوهم القضاء والولاية. وهو سبب أزمة المساكن؛ لأنه كان يحاكم الذين يحصلون على خلو، فخاف أصحاب البيوت من بناء بيوتهم. وهو سبب ارتفاع أسعار الخبز والفاكهة والخضروات؛ لأنه حدد ملكية الأرض الزراعية ففتت الملكيات.

لقد كتبت في روايتي الهماميل المنشورة عام ١٩٨٨، إن أمريكا وإسرائيل يريدان تكوين طبقة تحمي مصالحهما، طبقة تغتني بسرعة غير

عادية وبأية وسيلة، مهما كانت الوسيلة سيئة؛ لكي تتبنى هذه الطبقة الجديدة ذلك، بعد أن تكون قد سيطرت على كل شيء: اختيار الحكام، ووضع القوانين.. إلخ، طبقة تحس أن العداء لأمريكا وإسرائيل عداء لها ولملايينها.

وقد حدث ما توقعته، تكونت بسرعة فائقة طبقة رجال الأعمال التي تدافع عن أمريكا وإسرائيل؛ لأن مصالحهما هي مصالح رجال الأعمال.

أزمة باعة الجرائد والكتب في ميدان محطة الرمل

كان مُحَمّد حافظ رجب أهم كاتب قصة ظهر في الإسكندرية، ومن أهم كتاب القصة القصيرة على مستوى الوطن العربي كله.كان يقف مسندًا ظهره على جدار سينما ستراند، قريبًا جدًا من سلم النفق الذي أسسته عصا عبد اللطيف البغدادي السحرية، بإقامة نفق تحت ميدان المسلة، المعروف جماهيريًا باسم ميدان محطة الرمل، وقريب جدًا من باب سينما ستراند، وأمامه (بنيكة)[٣] مغطاة بالزجاج من جهاتها الأربع، يظهر من خلال الزجاج الفستق والسوداني واللب الذي يبيعه.

لقد اختار مُحَمّد حافظ رجب أنسب الأماكن للبيع؛ فالجماهير التي تأتي إلى الميدان إما للتنزه أو للذهاب لعملها أو لدخول السينمات الكثيرة فيها، تحرص على السير في هذا الطريق، ويزداد الزحام في هذه المنطقة بالذات؛ لأنها المنحنى الذي يوصلك لعمق الميدان، حيث محل (على كيفك)، ومسرح تريبكو، ومحلات الهريسة المشهورة هناك، ثم سينما ريتس، وبعدها سينما فريال. وتحرص الجماهير على الوصول للميدان، إما بعبور الشارع أمام سينما ريتس حيث يقف جندي المرور هناك، أو

[٣]- (بنيكة) تصغير كلمة بنك، وكلمة بنك أصلها هو الكلمة الايطالية (بانكو) وتعني المصطبة التي يجلس عليها الصرافون لتحويل العملة، ثم تطور المعنى، إلى أن أصبح يعني المكان الذي توجد فيه المنضدة، وتجري فيه المتاجرة بالنقود، أما اصطلاحًا فتعني هذه الكلمة المكان الذي يلتقي فيه العرض والطلب على النقود، أي تقبل الودائع بشتى أنواعها من الفئة ذات الفائض وإعادة استخدامها أو منحها في شكل قروض و سلفيات لفئات أخرى ذات احتياج إلى الأموال. ومن هنا يظهر البنك كوسيط مالي يقوم بإعمال الوساطة غير المباشرة بين المقرضين و المقترضين.

باستخدام السلم الكهربائي للنزول إلى النفق، الذي تحول إلى مجمع استهلاكي لبيع الخضروات والفاكهة والبقالة واللحوم.

يحكي مُحمَّد حافظ رجب أن الشرطة كانت تطارد الباعة الجائلين، وأن مخبر بنقطة شرطة المسلة جاء وقبض عليه، لم يستطع حافظ رجب الهروب منه، فالبنيكة الممتلئة بالفستق المرتفع الثمن ثقيلة ولا يستطيع حملها والجري بها. أصر المخبر على أن يحمل رجب البنيكة الثقيلة على رأسه، ويعلق الحامل على كتفه ويقوده حتى نقطة المسلة القريبة جدًا من برج الثغر.

هذه أزمة الباعة –كل الباعة– في هذا الميدان، أزمة قديمة جدًا، ما أحكيه حدث أيام حكم جمال عبد الناصر، والمشكلة موجودة للآن، بل تأزمت وتعقدت أكثر.

يحكي الكاتب الإنجليزي لورانس داريل في رائعته الروائية (رباعية الإسكندرية) عن محطة الرمل، فيقول إنها مكونة من أكواخ صفيح.

كانت منطقة مهملة، قريبة جدا من (مسلة كليوباترا)، وكانت ضاحية (الرمل) صحراء تنتشر فيها الكثبان الرملية المتصلة، وتتناثر فيها واحات صغيرة فقيرة يأوي إليها بعض الأعراب فى مواسم الأمطار، ثم ينتقلون نحو الجهات الرطبة الخضراء جنوبًا بمديرية (البحيرة)؛ بحثًا عن مراع لأغنامهم.

وقرية صغيرة تسمى (الرملة)، يعمرها القليل من السكان. وعندما حدّث الوالي سعيد المدينة لعشقه لها، فقد حكم مصر من خلالها، وهو أول وآخر حاكم لمصر في العصر الحديث يتخذ من الإسكندرية عاصمة للبلاد؛ فقد ولد وعاش ومات فيها، وتم دفنه في مسجد النبي دانيال الشهير بالإسكندرية؛ لذا كانت الإسكندرية كلها ملك حفيده عمر طوسون.

حدّث الوالي مُحَمَّد سعيد المدينة، مما أدى إلى زحف العمران تدريجيًا نحو الشرق، فبدأت تلك القرى الصغيرة فى الالتحام بالمدينة الأصلية وضاحية الرمل، فأحس الحكام بحاجة منطقة الرمل إلى وسيلة انتقال تصل بهم إلى وسط المدينة، فكان الامتياز الذى تم منحه للسير (إدوارد سان جون فيرمان) فى ١٦ أغسطس عام ١٨٦٠م، لمد قضبان حديدية بجهة مسلة كليوباترا (محطة الرمل الحالية)؛ لنقل المواطنين بقطار واحد من المسلة إلى محطة بولكلي، وبمرور الوقت تلاشى اسم المسلة، وعبر الناس عما يرونه أمامهم، بأن هذه المحطة، تنقل الركاب للرمل، فأصبحت محطة الرمل.

ميدان محطة الرمل، هو أهم مكان في الإسكندرية على الإطلاق، وقد كنا نحرص في بداية شبابنا على الحضور إليه كل يوم تقريبًا، نخرج من حينا في راغب باشا، ونصل إلى محطة مصر، ندخل شارع النبي دانيال، في أوله مدخل يصل بنا إلى الأرض الواسعة التي خلفها إزالة كوم الدكة –قبل اكتشاف المسرح الروماني– نجد أنفسنا في شارع المسلة الذي أصبح صفية

زغلول بعد قيام ثورة يوليو ٥٢، في آخره محطة الرمل. هذه رحلة أهالي الإسكندرية، يأتون إلى محطة الرمل من كل مكان فيها.

أسر كثيرة تحرص على الذهاب إلى محطة الرمل للفسحة، تأتي مثلنا قريبًا من محطة مصر، ويأتي الكثير من منطقة الرمل بركوب الترام، يشترون الفشار المشهور في الميدان، أو غزل البنات للأطفال، والجيلاتي، والسندوتشات. يقفون وسط الميدان، يتحدثون، فهذا هو مكان الالتقاء، ومن خلاله يتحركون إما إلى السينمات الكثيرة هناك، أو إلى المقهى، أو حتى إلى أعمالهم.

نجد هناك ترامين لونهما أزرق، خط رقم ١ آخره فيكتوريا عن طريق باكوس، وخط رقم ٢ آخره أيضًا فيكتوريا لكن عن طريق جليم. وبذلك تغطي ترام الرمل كل الأحياء هناك.

وترام أخرى لونها أصفر تبدأ من محطة الرمل وتنتهي في محطة رأس التين، وأحيانا تبدأ من محطة المطافي في المنشية وتنتهي في سيدي جابر. وإذا أسعدك الحظ، تجد ترام بكاتين (دورين) فتصعد للدور العلوي، وتشاهد الإسكندرية من فوق.

وقد حدثني عضو بارز في مجلس محلي مدينة الإسكندرية، بأن المحافظة تحرص على وجود الترام أم كاتين، حتى لو كلفها هذا المبالغ الطائلة، فقد أصبحت الترام أم كاتين من معالم الإسكندرية التي تمتاز بها وحدها دون كل محافظات مصر.

علاقتنا بباعة الكتب في مدينة الإسكندرية

بالنسبة لنا نحن الكتاب، هناك ثلاث أنواع لباعة الكتب في مدينتنا الإسكندرية:

النوع الأول: هم موظفو المكتبات الحكومية مثل فرع هيئة الكتاب، وفرع دار المعارف بشارع سعد زغلول. وهم يعرفوننا بالاسم، خاصة في فرع هيئة الكتاب؛ فالهيئة نشرت لنا الكثير من الكتب التي ترد إلى الفرع، كما أننا نحرص على شراء كتبنا من الفرعين، الهيئة ودار المعارف.

النوع الثاني: هم باعة الكتب القديمة في شارع النبي دانيال، وهم يتعاملون معنا بحب، فعندما أسير في الشارع أحييهم، ويرفع بعضهم كتبي التي وردت إليهم عن طريق التجار الذين يشترونها من ربات البيوت، وأعطي تليفوني لهم، فأحيانًا يسأل البعض عني أو عن كتبي، فقد كنت أسير مع صديق لي، واستوقفني أحدهم قائلًا: جاءت فرنسية وسألت عن كتبك.

فالمركز الفرنسي قريب جدًا منهم، أو عندما اتصل بي أحدهم قائلًا: جاء بلال فضل يسأل عن كتبك عندي.

النوع الثالث: هم باعة الكتب والمجلات في محطة الرمل، وعلاقتنا بهم قديمة جدًا، فمازلت أذكر عم السيد عبده الذي كان رئيسًا لنقابة باعة

الصحف، والذي كان يحرص على حضور لقاءات خالد محيي الدين السياسية، والذي ارتبطت علاقته بكل أدباء الإسكندرية، فقد علقت لافتة تعلن عن صدور كتابي الأول (الصعود فوق جدار أملس) بجوار فرش صحفه وكتبه ومجلاته، وهكذا فعل سعيد سالم عندما أصدر كتابه (بوابة مورو).

وبجوار عم السيد فرش الرملي، الذي ارتبطنا به وبابنه ممدوح، وبكل العاملين في فرش جرائده، وبعد صدور روايتي (الجهيني)، جاءني الصديق أحمد فضل شبلول في قصر ثقافة الحرية، قائلًا: ممدوح الرملي بيقولك: جمال الغيطاني سأل عليك وعايز يقابلك، وهو نازل في فندق سويس كوتيش.

وفعلًا اتصلنا بالفندق، وحددنا موعدًا مع جمال الغيطاني (رحمه الله) في أتينيوس، وقابلناه أنا ومُحَمَّد عبد الله عيسى وأحمد فضل شبلول، وقد قرأ روايتي (الجهيني) وأعجب بها، وكتب عنها في باب كان يصدر في جريدة الأخبار كل يوم خميس بعنوان آخر الأسبوع، ويشرف عليه الأستاذ أحمد الجندي.

إنني –أساسًا– ضعيف جدًا أمام الكتب، واعتبرها من المقدسات، ومن معالم التقدم، ولا أستطيع احتمال إنسان يتعامل مع الكتب وكأنه يتعامل مع أحذية أو أي سلعة أخرى، هذا ما أحسه إذا تصادم باعة الكتب القديمة في شارع النبي دانيال مع الشرطة المعروفة باسم الإزالة،

وهذا ما أحسه إذا حدث صدام مع باعة الجرائد والمجلات والكتب بميدان محطة الرمل.

كنا نحضر ندوة القصة بقصر ثقافة الحرية يوم الإثنين، عبد الله هاشم، ورجب سعد السيد، وسعيد بكر وأحمد حميدة، ومُحَّمد عبد الوارث وغيرهم، وبعدها لا بد من الذهاب إلى محطة الرمل؛ لمتابعة الكتب والمجلات والجرائد، ونشتري ما يلزمنا، ويركب البعض الترام ليعود لبيته، ونسير معًا حتى محطة مصر.

لم أكن أعلم وأعتقد أن الكثير لا يعلمون مثلي أن الميدان ليس تابعًا لمحافظة الإسكندرية، وإنما هو ملك هيئة النقل العام، المكان كله تابع لترام الرمل، وكل من يشغل محلًا أو كشكًا أو فرشًا لبيع الجرائد يسدد إيجاره لهيئة النقل العام.

سيادة محافظ الإسكندرية قرر تطوير هذا الميدان الذي له صلة بالترام التي يعشقها، ولا أدري ما سر اهتمامه غير العادي بالترام، حتمًا في طفولته أشياء أدت إلى ذلك.

المهم أن التطوير ستقوم به الجهة المالكة، وهي هيئة النقل العام، التي أرسلت إنذارًا إلى كل شاغلي الميدان بأن يستعدوا لإخلائه، وأعطوهم مهلة حتى يوم الأحد ٨ أكتوبر ٢٠١٥ لعمل التطوير فيه.

وبالفعل تم إزالة الأكشاك، ومنها كشك لبيع الفشار يعتبر من معالم الميدان هناك. ينزل ركاب الترام، ويتزاحمون لشراء الفشار، وقد يحمله البعض ويركب الترام به.

وحدثت اتهامات بين مؤجري الميدان وهيئة النقل العام، التي تزعم أن باعة الجرائد لا يسددون الإيجارات المستحقة، وباعة الجرائد يردون بأن لديهم إيصالات تؤكد سدادهم لقيمة الإيجار، بل ويقول بعضهم بأن المشكلة بدأت منذ أن تولى اللواء خالد عليوة مسؤولية رئاسة الهيئة العامة لنقل الركاب بمحافظة الإسكندرية، فطالبهم برفع قيمة الإيجار، فاشتكى البعض بأن بيع الجرائد لا يأتي بمبالغ كبيرة تمكنهم من سداد الإيجار الذي يريده، فقال لهم ما معناه، طيب ما تغيروا النشاط، بيعوا كشري أو كبدة.

الفرق في المعاملة

انقطع التيار الكهربائي عن منطقة محطة الرمل، حيث كنت في زيارة صديقي الذي يمتلك محلًا لتجارة الكهرباء هناك، وذهب صديقي مع بعض أصحاب المحلات لمعرفة سبب الانقطاع، ومتي سيعود التيار، فعاد وهو يضحك قائلًا لي: هناك (محول كهربائي) فسد، ولم يستطيعوا إصلاحه، فقرروا أن يأتوا بمحول من كابينة الكهرباء في حي (راغب باشا).

ضحك صديقي وهو يحدثني؛ لأنه يعلم أنني أسكن حي (راغب باشا)، فسوف يقطعون التيار الكهربائي عن حينا الشعبي الفقير، لينيروا حي (محطة الرمل) المهم، والذي تقع فيه محلات كبيرة ومشهورة، ويسكنه شخصيات مهمة في الدولة.

هذه الحادثة حدثت منذ أكثر من ثلاثين عامًا، لكنها تكشف عن حقيقة مهمة نعيشها في بلادنا في كل وقت، وهي التفرقة في المعاملة في كل شيء، على مستوى الأفراد والشركات والأحياء، كل شيء في الدولة.

فمعاملة رجال المرور لأصحاب سيارات الأجرة تختلف عن معاملتهم لأصحاب السيارات الملاكي. فسائق سيارة الأجرة معروف قدره، ولكن قائد السيارة الملاكي قد يكون مستشارًا أو رجل أعمال أو حتى ضابط في

الجيش أو الشرطة. وأذكر عندما تعطلت سيارة الصديق مُحَمَّد قاسم على كورنيش البحر. فذهبت أنا وهو لاستدعاء ميكانيكي من حي الحضرة (أقرب مكان لوجود السيارة) تاركين المستشار فوزي الميلادي بالسيارة، وعندما عدنا بالميكانيكي، قال لنا فوزي الميلادي، كلما جاءت سيارة شرطة أقول لهم: أنا المستشار فوزي الميلادي، فيحيوني ويذهبون.

وعندما أحس المسؤولون في اتحاد الإذاعة والتليفزيون بالأزمة المالية، قرروا تخفيض النفقات في الإذاعات والقنوات المحلية. فقللوا المصاريف هناك، إذاعة الإسكندرية التي كانت تنتج مسلسلًا إذاعيًا كل شهر، قرروا لها مسلسلًا إذاعيًا واحدًا في السنة، وأوقفوا الكثير من البرامج التي تحتاج لنفقات، واكتفوا بالبرامج الحوارية التي لا تكلف شيئًا طبعًا، فالإذاعات والقنوات المحلية هي الحيطة الواطية. وهذا ينطبق على معاملة العاملين فيها، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب.

وهذا ما كان يحدث في شركتنا، يا عيني على الذي يغضب عليه وينقل لمصنع تابع لشركتنا، ينسونه هناك. فالسادة المديرون الكبار الذين يقبعون في المصنع الكبير لا يعرفون هؤلاء، فينسونهم في المكافآت والترقيات. وهذا ما يحدث في كل مجالات الدولة، أدباء الأقاليم يحصلون دائمًا على الأقل، فعندما يقدمون رواية أو ديوان شعر أو مجموعة قصصية للنشر، لا بد من اثنين فاحصين للموافقة على النص، وبالطبع سيكونان من الأدباء الذين يعيشون في القاهرة، ولو كانوا أقل قدرًا من صاحب النص.

والتفرقة موجودة حتى في القطارات، فقد ركبنا –منذ سنوات طوال– قطار درجة ثالثة أنا والصديق عبد الله هاشم ذاهبين إلى القاهرة، فتعطل مدة طويلة جدًا، حتى تعبنا من الانتظار، فأخبرنا رجل مسن –واضح أنه يسافر كثيرًا ويعرف مواعيد القطارات– بأنه لا بد أن ينتظر القطار الفاخر الذي قام بعد موعد قيام قطارنا بأكثر من نصف ساعة.

والفئات التي لا تستطيع أن تصل بشكواها إلى المسؤولين يعاملون معاملة غاية في السوء، فمرضى المستشفيات النفسية والعصبية يهانون ويضربون، ويعاملون معاملة أحط من معاملة الحيوانات، فهم مرضى فمن سيسمع لشكواهم، وكذلك المساجين وفئات أخرى لا داعي لذكرها.

والأحياء، كل حي حسب من يسكنه. فمعاملة الشرطة للأحياء الشعبية تختلف عن معاملة الأحياء الراقية؛ فمعروف أن سكان الأحياء الشعبية فقراء وشكواهم لا تصل لمسؤول، وحتى لو اشتكوا من سيستمع إليهم.

والسلع الاستهلاكية المدعمة –أيام كانت توزع على المجمعات– كانت توزع على الأحياء الراقية التي لا تحتاج إليها من دون الأحياء الشعبية الفقيرة.

وقد كنت أعمل في شركة قريبة جدًا من شاطئ المعمورة، وكان أحد الزملاء يأخذنا بسيارته إلى هناك، فيدخل الشاطئ بسيارته، فيقف عمال البوابة رافعين أياديهم له باحترام شديد، قائلين: أهلا يا سيادة اللواء.

المفروض أن ندفع قيمة دخول الشاطئ، لكن من أجل سيادة اللواء يعفونا من هذا. زميلنا هذا لا يحمل أية شهادات دراسية، رجل طويل وعريض، وشاربه كبير ينسدل على فمه من الناحيتين، يجيد القراءة والكتابة. سافر إلى بلد عربية غنية وعاد محملًا بالأموال، فاشترى سيارته هذه وعمل في شركتنا، كان عمله استخراج رخص سيارات وأسلحة الشركة، والتعامل مع شركات التأمين؛ فقد كان موهوبًا في المعاملة مع هؤلاء. يقدم نفسه على أنه لواء سابق، خرج من الخدمة برتبة عميد، فحصل على الرتبة الأعلى وهي اللواء.

كان يأخذنا بسيارته إلى المجمع الإستهلاكي في شاطىء المعمورة، فيقف له مدير المجمع باحترام شديد:

اتفضل يا سيادة اللواء، ويخبره بالبضائع الجديدة التي جاءت اليوم أو الأمس. كنا نشتري اللحوم المجمدة، والدجاج المدعم والعدس الذي يباع بسعر أقل مما يباع به لدى المحلات الأخرى. بضائع إذا أتت إلى مجمعات الأحياء الشعبية تجد أمامها طوابير وصراخ وضرب، لكن في شاطئ المعمورة نحصل عليها دون عناء، فقد كان من المفروض أن توزع بكمية أكبر في مجمعات الأحياء الشعبية المستحقة لها، لكن ماذا نقول، هذه هي مصر!

الكرة ورأس الرجل

يوم السبت ١٤ نوفمبر ٢٠٠٩، كانت مبارة كرم القدم بين فريقنا المصري والفريق الجزائري، وقت المباراة كنت في البيت وحدي، فقد ذهبت زوجتي إلى بيت أسرتها، وذهب ابني لمشاهدة الماتش في بيت خاله، وأنا لا أطيق مشاهدة مباريات كرة القدم، وأقضي وقتها إما في السير، حيث الطرقات تكون خالية والمواصلات هادئة، وإما في البيت أكتب أو أقرأ، وعندما أسمع صياح الجماهير، أسرع إلى التليفزيون، الذي يكون وقتها مغلقًا، وأبحث عن القناة التي تذيع الماتش لأعرف ماذا حدث، وسرعان ما أعود إلى مكاني، وانشغل بما كنت أفعل.

إنني لست ضد لعبة كرة القدم، ولست ضد الاهتمام بها ورعاية لاعبيها، فذلك أمر حيوي، وفوزنا في مباريات دولية يرفع من رصيدنا عالميًا، ويكون سببًا في رفع قيمة بلادنا، وهذا يؤدي بالضرورة إلى زيادة الدخل القومي، خاصة من السياحة.

وأنا أشجع النادي الأهلي لكن من بعيد لبعيد، بمعنى أنني أتمنى أن يفوز في مبارياته لكن دون أن أراها.

وقد حاولت متابعة مباريات كرة القدم مثل ملايين الناس في العالم، لكنني فشلت، وما زلت لا أفهم أشياء كثيرة في الملعب، لا أعرف متى

يكون (الأوفسايد)، وسألت العالمين بالأمر في ذلك، فشرحوا لي كثيرا، لكنني لم أفهم.

وكنت في بداية شبابي صديقًا لشاب يجيد لعبة كرة القدم، ويعشق متابعة المباريات في التليفزيون، خاصة المباريات العالمية، وكانت القناة الثانية في التليفزيون المصري تعرض مباراة عالمية مهمة كل يوم ثلاثاء، وألح صديقي هذا عليّ بأن أذهب معه في قهوة بشارع ابن الخطاب لمشاهدة مباراة بين فريقين كبيرين –لم نكن أنا وهو نمتلك تليفزيونات– وجلست بجواره، أبحلق في الشاشة الصغيرة، وأتابع الكرة وهي تجري فوق النجيلة الخضراء، وأنا غير فاهم شيئًا مما يحدث أمامي، فقمت مفزوعًا من مكاني، وقلت لصديقي: آسف، لا أستطيع احتمال هذا. وعدت إلى بيتي وتركته يتمتع بالمباراة.

وكنت أقف في أول حارتنا مع زملائي، فأجدهم يتحدثون عن فرق الكرة، خاصة صديقي الذي أصبح عديلي بعد ذلك، فهو يجيد لعب الكرة الشراب في الشارع، ومهاجم قوي يعرف كيف يجيب أجوان، وكان اتحاداوي صميم، يعرف تاريخ النادي منذ أيام محمود حودة والسيد حودة، وحكاية الديبة الذي كبر في السن واعتزل، لكن عندما هبط نادي الاتحاد إلى دوري الدرجة الأولى (المظاليم)، عاد ثانية إلى لعب الكرة حتى صعد بناديه إلى دوري الممتاز. حكايات درامية مشوقة.

وكان عديلي هذا يتحدث مع كل من يقابله عن الاتحاد، ولا يأنف من أن يرد على ولد صغير هاجم الاتحاد أمامه.

وكان رئيس الشركة التي كنت أعمل بها حريصا على شراء تذاكر مباريات كرة القدم، التي تلعب فيها الفرق السكندرية مع الأهلي أو الزمالك، وكنت في كل مرة أحصل على تذكرتين، فأصحب صديقي – الذي أصبح عديلي بعد ذلك– لمتابعة هذه المباريات في الاستاد، وأتأمل ما يحدث، رجل يصرخ من أجل نادي الاتحاد، حتى إن زملاءه الاتحادوية يهدئونه، ويقولون له: ممكن يجرالك حاجة، مين حينفعك وينفع ولادك؟!

وكان (السيد بخيت)، وهو صاحب فرقة عوالم مشهورة في الاسكندرية، ينزل بين الشوطين إلى أرض الملعب، فيعزفون له الموسيقى الراقصة، ويرقص الرقصة الإسكندرانية المشهورة.

كانت مصر كلها في الستينيات متعلقة بلعبة كرة القدم، الحكومة تعطي لهذه اللعبة كل أهمية واهتمام، فجمال عبد الناصر أهلاوي، وعبد الحكيم عامر زملكاوي وأسرته كذلك، وكان رئيسًا لاتحاد الكرة. والفريق عبد المحسن مرتجي قائد القوات البرية رئيسًا للنادي الأهلي، والفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية رئيسًا لنادي الأولمبي، وساعده حتى حصل على الدوري الممتاز لأول مرة وآخر مرة في حياته.

وعندما هزمنا في يونيو ١٩٦٧، ادعى البعض أن كرة القدم كانت أحد أسباب هزيمتنا. فأوقف جمال عبد الناصر الكرة، ومات في عام

١٩٧٠ ومازالت كرة القدم ممنوعة، ولم يعدها خليفته أنور السادات إلا في عام ١٩٧٤، بعد أن حاربنا في ١٩٧٣ وانتصرنا.

وعبر الكاتب المبدع مُحَمَّد حافظ رجب عن اهتمام الدولة بكرة القدم في ذلك الوقت على حساب الثقافة، بقصته الرائعة (الكرة ورأس الرجل)، والتي كانت سبب شهرته، وهي تحكي عن صحفي مثقف وجاد يعمل في جريدة تركها قراؤها، واشتروا بثمنها تذاكر لمشاهدة مباريات كرة القدم، حتى شكا رئيس التحرير من قلة بيع النسخ، وهجرها المحررون، خاصة المحرر الرياضي الذي أصبح معلقًا رياضيًا، والذي أهدى الصحفي الجاد تذكرة لمشاهدة مباراة كرة قدم في الاستاد، فأحس الصحفي بأن الكرة شيء مقدس، يعشقها الناس، ويعطونها كل اهتمامهم، وأن رأسه التي استدارت مثل الكرة من كثرة الكتب التي قرأها، تصلح لأن تكون كرة يلعبون بها، فاقترح على الحكم واللعيبة بأن يأخذوا رأسه ويلعبوا بها المباراة، وطلب الصحفي (صاحب الرأس التي يلعبون بها الكرة) من العسكري أن يساعده على استعادة رأسه. فقال له العسكري: رأسك مع الفريق الفائز. فقال له: أنا أشعر بالسرور، لقد أثبت لهم أن رأسي في إمكانه أن يقف مع الكرة، وهذا يكفي.

نظرية المؤامرة

لنا زميل في الوسط الأدبي والثقافي بالإسكندرية يؤمن بنظرية المؤامرة، فكل شيء يحدث في الإسكندرية ومصر والعالم يحيله إلى مؤامرة حاكها البعض، فمن رأيه مثلًا أن استقطاب دولة الكويت لثلاثة من أهم كتاب القصة في مصر، وهم المحمدون الثلاثة: (مستجاب، والمنسي قنديل، والمخزنجي) مؤامرة أرادت بها الكويت أن تحرم مصر من إبداع هؤلاء الكتاب المتميزين.

وأن الذين ينشرون قصصًا في جريدة الأهرام يوم الجمعة، يختارونهم من المتعاملين مع الدولة، والذين يقدمون الخدمات للحكومة، فهي راضية عنهم، وأن أسماءهم تعرض كل شهر على المباحث العامة، فتوافق على من تريد، وتشطب على من لا تريد. الغريب أنه كان يقول لي هذا، في الوقت الذي كنت أنشر كثيرًا في أهرام الجمعة.

وقد شاهدت فيلمًا تليفزيونيًا ظريفًا مستوحى من فكرة للأستاذ أحمد رجب، اسمه (فوزية البرجوازية)، فيه مجموعة من المثقفين يشك كل منهم في الآخر، إلى أن شك الرجل في زوجته واتهمها بأنها مباحثية، وهذا ما كان يحدث مع زميلنا، فكل من يحدث له رواج أو ينشر بكثرة فهو عميل،

وينقل ما يدور في جلساتنا إلى جهات مشبوهة، وأن فلانًا الفلاني الذي ظهرت عليه آثار الثراء، عميل للمخابرات الأمريكية، وهو يقبض منها.

وحكى لي بأن الحكومة وضعت سيارات الأمن المركزي في الشوارع والأزقة؛ تحسبًا لغضبة الشعب نتيجة لارتفاع الأسعار، وما أغاظ الحكومة وحيرها أن الأسعار زادت والشعب لم يتحرك، وأن الشعب لو تحرك لارتاحت الحكومة واطمأنت، لكن ذلك الصمت يخوّف، فالكبت يولد الانفجار، وأنه في ذلك الوقت وجد شرطيًا سريًا مسنًا وبدينًا، يعرفه زميلنا جيدًا، ويعرف في أي قسم شرطة يعمل، وجده يراقبه، ينتظره عندما يخرج من بيته، فأسرع أمامه، وزميلنا هذا نحيف ورشيق، وخطواته سريعة، فظن أن ذلك الشرطي السري ستعوقه شيخوخته وبدانته عن اللحاق به، لكنه فوجئ بوجوده أمام دكان المكوجي عندما ذهب زميلنا إليه لأخذ القميص منه. كما أنهم أرسلوا إليه أحد زملائنا الأدباء ليوقعه في الخطأ ويسجل له، فقد تحدث معه عن الفساد الذي تعيشه مصر الآن، لكنه لحصافته لم يتفاعل معه، ولم يجيبه بشيء يدين.

حاولت أن عرف لماذا يؤمن زميلنا هذا بهذه الأفكار، وقلت لآخرين إن في حياته سرًا جعله مشوهًا نفسيًا بهذا الشكل، ولاحظت أنه يعرف الكثيرين من اليساريين المعروفين في الإسكندرية، وقادة العمال في شركات الإسكندرية، ويعرف الذين سبق أن قبض عليهم من زملائنا الأدباء، بل ويعرف ماذا كانوا يفعلون في السجن، وأن بعضهم خان زملاءه وبكى

ووقع على التماس، وكتب عرائظ الإعتذار، سألته :هل اعتقلت من قبل نتيجة لانتمائك للجماعات اليسارية؟ فأكد لي بأن هذا لم يحدث.

زميلنا هذا حكى لي بأن ما يحدث من أزمات في العالم نتيجة لمؤامرات تحاك عن طريق المتخصصين، بعد أن سيطر رجال الأعمال على العالم كله خاصة أمريكا، فقد لاحظ تجار الطيور في العالم أن الناس تقبل بشراهة على شراء لحوم المواشي، ولا يهتمون بإنتاج مزارعهم ومصانعم، فصنعوا أزمة (جنون البقر)؛ لكي ينصرف الناس عن أكل لحم الأبقار والجواميس ويأكلوا الدواجن، وقد أثرى أصحاب مزارع الدواجن وحققوا ثروات كبيرة.

لكن تجار المواشي في العالم لم يسكتوا، وظلوا يتربصون بتجار الطيور، وصنعوا لهم ما هو أشد وأفظع، صنعوا لهم أزمة إنفلونزا الطيور، وكبدوهم خسائر كبيرة، وهكذا ظل الصراع سائرًا بين الجميع، يدفعون للعلماء بسخاء، ليخلقوا لهم فيروسًا جديدًا يخدم مصالحهم. وأنه يخشى على تجار الأسماك في العالم أن يصنع لهم تجار المواشي والطيور معًا مرضًا مرتبطًا بالأسماك، كما قد شاع بين الناس في مصر بأن هناك بواسير الأسماك.

وأن مرض إنفلونزا الخنازير مرض قديم جدًا، اكتشفه العلماء في أمريكا واحتفظوا به إلى حين الاستفادة منه في الوقت المناسب. وقد لاحظوا أن المسلمين والعرب قد ازداد عددهم في العالم، ففكروا بنشر هذا الفيروس المخبوء عندهم لسنوات طويلة، ينشرونه في أفغانستان والعراق،

والصومال والسودان وليبيا، ثم بقية الدول العربية والإسلامية، وبذلك ينتهون من العرب والمسلمين دون إطلاق طلقة واحدة.

وفي جلسة أخرى، في بيت زميل لنا، انبرى زميلنا هذا وتحدث عن فيروس إنفلونزا الخنازير الذي اجتاح بلدان العالم في ظرف قياسي، وقال إنه نتيجة مؤامرة يقودها سياسيون ورجال مال وشركات لصناعة الأدوية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومنها شركة جلعاد التي أسسها طبيب شاب اسمه ميشيل روودان عام ١٩٨٨، واختار دونالد رامسفيلد (وزير الدفاع الأمريكي الأسبق) ليكون عضوًا في مجلس إدارتها، وصار رامسفيلد حاملًا لكمية من أسهمها، ولا يخفى على أحد دوافع هذا التعيين، لرجل قضى حياته في العمل السياسي والاستخباراتي وحبك المؤامرات وشن الحروب ولم يعرف أن له نشاطًا علميًا قط. ثم أصبح رامسفيلد رئيسًا لمجلس إدارة الشركة عام ١٩٩٧، واستمر بهذا المنصب حتى عام ٢٠٠١ حين صار وزير الدفاع الأمريكي.

تعمل هذه الشركة في مجال صناعة المضادات الفيروسية بشكل خاص، وقد طورت حتى عام ٢٠٠٦ أحد عشر دواءً، لكن الكنز الحقيقي الذي غيّر واقع الشركة وجعلها في الصدارة عام هو عقار التامفلو Tamiflu المضاد لإنفلونزا الخنازير.

رغم علمي أن زميلي هذا يبالغ كثيرا في أحكامه، ولديه تهويمات وخيالات بعيدة، لكنه يقرأ كثيرًا، ويتابع المجلات الأدبية والعلمية أولًا بأول.

عالم العبيد

يقول الكاتب الكبير مهدي بندق في مقالة له في جريدة صوت الأمة: كان الأمير مضطجعًا ساعة القيلولة، حين سمع عبدًا من الواقفين حوله يتضرع: يا رب ابلِ مولانا بشيء من العطش. اعترت الدهشة الأمير فزمجر: أنا عطشان. وإذا بالعبد يعدو إليه كالبرق بقارورة الماء، شرب الأمير وعاد العبد إلى مكانه والارتياح يعلو وجهه.

ما الحكاية بالضبط يا هذا؟! أجاب العبد: كنت ظمآن يا مولاي، ولست أتحرك دون إذنك، فتمنيت أن تعطش لأسقيك وأشرب بعدك.

يا لهذا القهر الرذيل الذي عاشته البشرية مددًا طويلة، قهر وعبودية في العالم أجمع، لقد قرأت رواية الكاتب السويدي (بارلاجير كفيست) الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٥١، قرأت روايته العجيبة والمخيفة (باراباس)، اشتريتها في عام ١٩٦٧، وقرأتها فور شرائها، لكنني لم أقترب من الكتاب مرة أخرى، من خوفي منه. إنه مفزع، جعلني لا أنام الليل وأنا أقرؤه وبعد أن قرأته، إنه يتحدث عن العبيد أيام الدولة الرومانية، كان باراباس لصًا سافكًا للدماء يسطو على المنازل ويزعج سكانها، وكان يقطع الطرق فينقض على المارة؛ لكي يسلب ما معهم ويقضي على أعمارهم،

وكان اسمه كافيًا لأن يدخل الرعب في القلوب، وأصبح من مكدري السلام وأصحاب السوابق، ولكن شاءت العناية أن يضبط ويقع في أيدي الحكام أسيرًا. فاقتادوه مع المسيح إلى هذا العذاب، وقد حكموا عليه بالجلد ثم الصلب. وبالصدفة كان هذا في عيد الفصح الذي يعفون فيه عن لص أو قاتل، فاختارت الجماهير براباس لينال هذا العفو، لكنه لم يفرج عنه، بل اقتادوه إلى أفران تحت الأرض، لصهر الحديد وصناعته.

العبيد مكبلين بالقيود إلى آخر العمر، لا يرون الشمس ولا يخرجون من أماكنهم أبدًا، عندما يموتون يضرب الحراس أرجلهم بالسيف، ليخرج القيود منها، ثم يلقون بالجثة ثم بالساق المقطوعة إلى الأفران، عاش باراباس في هذا العالم المخيف، واهتدى إلى عبادة الله، فقابله حارس أعجب بالدين المسيحي الجديد، وطلب من باراباس أن يعلمه إياه، فأحبه الحارس وعطف عليه، وتدخل لكي ينال –ولأول مرة– حرية الخروج إلى سطح الأرض، ويواجه الشمس، عمل باراباس في فلاحة الأرض، فجاءت الجماهير المندهشة لرؤية هذا المخلوق العجيب الذي نجا من جهنم.

عالم العبيد بشع، يجمعون الدقيق الذي يطحنونه في أجولة، ومن يضبط بأكله، يفقؤون عينه، ولو تكرر هذا يفقؤون عينه الأخرى، وينقل إلى عمل يتناسب مع عماه، وبعيدًا عن الدقيق الذي يسفه من وقت لآخر، يربطونه في الحبال التي تطحن الغلة، فيحتك جسده بالسيور والحبال، حتى يتقيح لحم جسده.

عالم مخيف في رواية الكاتب السويدي بارلاجير كفيست، ورواية (سلامبو) لجوستاف فلوبير، فمما أذكره منها أن الأمير ذهب لتفقد عنابر عبيده، فجاؤوا له بعبد تونسي مقيد، وقالوا له: ضبطناه يحاول الانتحار. فسأله: لماذا تريد الإنتحار؟ قال العبد التونسي: ضقت بحياة العبودية. فسل الأمير سيفه وقتله وأراحه من عذاب الرق.

ثم أمر الأمير بأن تفتح عنابر الرجال والنساء، حتى يحدث التلاقي الليلي، بين الرجال والنساء وتنجب نسوة العبيد أطفالًا يتاجر الأمير فيهم، أو يستخدمهم في العمل عندما يكبرون.

أو المشهد الذي لا ينسى في رواية (كوخ العم توم) للكاتبة الأمريكية هنريت ستو، العبيد عندما يعودون مساءً من عملهم، فيبتعد الضعفاء والكبار في السن، ويبدأ الشباب القوي في طحن الذرة، ثم طهيها وتحويلها إلى طعام، ثم يبدأ عمل الضعفاء والكبار في السن والأطفال والنساء بعد ذلك. عمل شاق طوال النهار، ثم عذاب لكي يجدون طعامًا يأكلونه.

عالم مخيف موجود في العالم كله، فيحكي كلوت بك في كتابه (لمحة عامة إلى مصر)، والذي كان يشغل نظارة الصحة في عهد مُحَمَّد علي باشا، يحكي بأن مجموعة من أهل الصعيد في في أسيوط وجرجا يشترون الصبية، ويقومون بقطع (أعضاءهم التناسلية) ثم يوضع المتبقي منها في زيت مغلي ليوقفوا تدفق الدم، ثم يدفنونهم في رمال الصعيد الملتهبة، حتى يضمدون

جروحهم، فيموت ربع عددهم تقريبًا، لكن المتبقي منهم يصبحون من الطواشي، يبيعونهم بمبالغ كبيرة للأمراء والأغنياء ليعملوا في الحريم.

وهذا ما كان يحدث في قصور أسرة الشريف حسين في أرض الحجاز، فقد نشرت الأميرة (بديعة) ابنة علي بن الشريف فى مذكراتها التى نشرتها فى لندن، أن قصور جدها حسين وأعمامها عبد الله وفيصل فى الحجاز كانت تعج بالأغوات، والتى كانت مهمتهم رعاية النساء فى تلك القصور، فقد لجأ الشريف حسين وأولاده إلى عمليات خصي واسعة النطاق بين الرجال الذين وقعوا في الأسر، وأطلق على هؤلاء المخصيين لقب (الأغوات)، وقد تكاثرت أعدادهم فى القصور.

لقد ظلت العبودية منتشرة في العالم لوقت قريب جدًا، بل إنها ما زالت موجودة في بعض البلاد العربية، مثل موريتانيا مثلًا، ففي كتاب (هذه حياتي) سيرة حياة عبد الحميد جودة السحار، يحكي عن جارية كان جده يمتلكها، وكان في شبابه يعاملها معاملة الزوجات، وكانت تغيظ زوجاته اللاتي يعشن معه بتقربها إليه في وجودهن، وبعد أن مات أرادت أن تتمرد على الجميع وأن تترك المنزل، فسمحوا لها بذلك، لكنها عادت باكية ذليلة، فقد خابت في أن تجد لها حياة مستقلة بعد أن اعتادت على الحياة في البيت. وهذا ما حكاه لي صديق بأن جده كان يمتلك الكثير من العبيد في الصعيد، وعندما كان يغضب عليهم، يهددهم بأنه سيطردهم فيبكون ويتذللون إليه، فهم لا يستطيعون الحياة بعيدًا عن البيت، فقد استمرت العبودية حتى بعد أن منعت رسميًا، وقد سمعنا في حينا الشعبي الذي جاء

رواده من الصعيد، نسمع عن فلانة الفلانة التي والدها أو جدها كان عبدًا في الصعيد.

وفي كتاب صلاح عيسي (حكايات من دفتر الوطن) حكاية تحدثت عنها الصحف طويلًا في أوائل أغسطس ١٨٩٤. عندما جاء نخاسًا بست حبشيات يريد بيعهن لرجال أغنياء، رغم أن من يضبط متلبسًا بالبيع أو الشراء أو التعامل في مثل هذه السلع، يعاقب بالسجن خمس سنوات.

اشترى علي باشا شريف (رئيس مجلس شورى النواب) ثلاثًا منهن بستين جنيهًا وسبعة للسمسرة، واشترى الدكتور الشافعي واحدة منهن. واشترت حرم حسين باشا واصف واحدة منهن، ومُحَمَّد الشواربي باشا اشترى الأخيرة.

وتربص الإنجليز للمشترين، خاصة أن ثلاثة منهم كانوا أعضاء في مجلس شورى النواب، الذي كان يهاجم الإنجليز ويطالبهم بتقليل الإنفاق الحكومي على موظفيهم الإنجليز، وأدى هذا إلى إدانة المشترين والتشهير بهم والانتقام منهم.

الأمر الذي يشغلني هو أن الدول التي تظلم شعوبًا أو فئات معينة، تعتذر إليهم أو تعوضهم عما نابهم من ظلم وإجحاف. فاليهود ينهلون من ألمانيا تعويضًا عما فعله هتلر الألماني بهم. والأمثلة في ذلك كثيرة، فلمن تعتذر البشرية نيابة عن هؤلاء العبيد الذين قاسوا من أسيادهم؟

ياما في الحبس مظاليم

حكى لي عسكري قابلته بالصدفة عن زميله الذي اكتشف سرقة دكان في منطقة حراسته، فانتظر أول مار يمر أمامه وناداه، ودفعه داخل الدكان المكسور، وادعى بأنه وجده داخل المحل يسرق.

كتبت عن هذه الحادثة القاسية في أول مجموعاتي القصصية (الاختيار)، وقد تأثر المرحوم المستشار عزيز بشاي بهذه القصة، ودهش من إمكان حدوثها، عندما كتب عنها في مجلة الثقافة، وأنا الآن أندهش من موقفه هذا، فذلك الظلم هو الأساس في تاريخ الشعب المصري، فالوالي سعيد الذي يعدونه صديقًا للفلاح المصري، ومحبًا لمصر والمصريين، ربط جنديين على فوهتي مدفعين، وأمر بإطلاق القذيفتين، ليتناثر جسديهما فوق البيوت، والحقول والشوارع، لمجرد أنهما ذهبا لزيارة أهليهما دون استئذان. وأمر بتجربة مدفع ورد إليه حديثًا من أوربا في ميدان كبير بالإسكندرية، فقال له قائد جيشه: يا مولانا، نحذر من وجود الناس في ذلك المكان وقت إطلاق قذيفة المدفع. فقال باستخفاف: لماذا؟ هو أنا لما استلمت الحكم كنت مستلم الشعب بالعدد؟!

وانطلقت قذيفة المدفع وفعلت ما فعلت، فذلك ليس مهمًا، يموت من يموت، فالناس لا سعر لها ولا ثمن!

وفي وقت جمال عبد الناصر أمير الفقراء -على رأي صديقنا أحمد ماضي- والديكتاتور العادل، حدث أن أرادت المباحث العامة القبض على واحد اسمه رمزي في حي من أحياء القاهرة، منتمٍ إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولا يعرفون باقي اسمه، فقبضوا على كل من كان اسمه رمزي في هذا الحي، من باب أن لا بد أن يكون بينهم رمزي الذي يبحثون عنه، وهم يعلمون أن الباقين ليست لهم صلة بالموضوع، لكن هذا لا يهم، المهم أن الذي يريدون القبض عليه تم القبض عليه.

وقد عبر جمال الغيطاني عن هذا المعنى في قصته (هداية أهل الورى بشأن ما جرى في المقشرة) التي نشرت في كتابه (أوراق شاب عاش منذ ألف عام).

والمقشرة كان سجنًا من سجون دولة المماليك، وقد أرسل الوالي إلى آمر السجن بعدد معين من المتهمين، عليه أن يحتجزهم عنده، ويعرضهم عليه في الصباح، لكن المتهمين استطاعوا الفرار من السجن، فأخذ آمر السجن جنوده وذهب إلى السوق القريب وقبض على الباعة والمشترين، وقدم العدد المطلوب إلى الوالي. لاحظ الموقف العبثي في قصة مستمدة من التراث.

وعندما تحدثت في ذلك مع جمال الغيطاني، وكنا نجلس في قهوة قريبة جدًا من محطة سكك حديد الإسكندرية، في انتظار القطار الذي سيقله إلى القاهرة. قال إنه استمد القصة من حادثة حقيقية حدثت في الإسكندرية

ورواها له سعد الدين وهبة أيام كان ضابطًا صغيرًا في قسم العطارين. إذ وقف مع باقي القوة التي ستنقل عددًا محددًا من المعتقلين إلى معتقل أبي قير. لاحظ سعد الدين وهبة أن المعتقلين وزوارهم قد تداخلوا معًا، فبعض المعتقلين يقفون ويتحدثون في طرقة القطار مع بعض الزوار، وبعض الزوار يجلسون مكان المعتقلين، علمًا بأن ليست هناك قيود أو زيًا موحدًا يميز المعتقلين، فقال سعد الدين وهبه لقائده: حنعرف المعتقلين بتوعنا ازاى؟ فأجاب القائد في استخفاف: إحنا مالنا؟ إحنا لينا ٣٠٠ معتقل وخلاص. وبالفعل تم احتجاز ٣٠٠ رجلًا، بصرف النظر إن كان معتقلًا أو زائرًا فهذا لا يهم أحد.

وقد عبر سعد الدين وهبة عن هذه الحكاية التي عاشها بنفسه، في مسرحيته ذات الفصل الواحد: (بابا زعيم سياسي) التي تحكي عن الزعيم السياسي المشهور، والذي حقق بطولات سياسية ووطنية عظيمة، ثم أحس بنهاية أجله، فاستدعى ابنه ليحكي له عن سره الخطير، فهو لم يكن يهتم بالسياسة، وإنما أقحم فيها دون إرادة منه.

فقد تم القبض على زعيم المعارضة للحزب الحاكم في وقت من الأوقات، وأودع قسم الشرطة، لكنه استطاع الهرب في الوقت الذي مر فيه صاحبنا بالصدفة أمام قسم الشرطة، فقبضوا عليه وادعوا بأنه زعيم المعارضة المطلوب القبض عليه، وحدث حادث غريب، فقد سقطت الحكومة في اليوم التالي، وخرج الرجل الذي قبضوا عليه بالأمس –خطأً–

محمولًا على الأعناق، فقد تولى الحزب الذي ينتمي إليه الحكم وأصبح الرجل مهمًا، ثم وزيرًا، ثم رئيسًا للحزب.

قبل تطبيق نظام البطاقات الشخصية والعائلية في مصر، كانت الأمور تمشي اعتمادًا على شيخ الحارة، فمن يتم القبض عليه، يأتون بشيخ حارتهم للتعرف عليه، وكان من المتبع أن يأتي شخص ينادي على قريب له أو صديق، قائلًا وهو واقف في الشارع: أنا قاصدك في خدمة، بكرة عندي قضية في المحكمة (الفلانية) علشان مخالفة، وأنا مش فاضي ياريت تروح بدلًا مني. ويذهب الآخر بدلًا منه، ويدعي أنه هو، ويدفع قيمة الغرامة التي يحددها القاضي.

والذي فعله بديع خيري ونجيب الريحاني في مسرحيتهما ٣٠ يوم في السجن ليس غريبًا، فقد كان سائدًا. وحتى بعد تطبيق نظام البطاقات الشخصية، كانت الأمور تسير في فوضى عجيبة، فالسيدات اللائي تمارسن الدعارة تذكرن أسماء غير أسمهائهن عند القبض عليهن، وأحيانًا تذكر الواحدة اسم امرأة تعرفها تكون مغتاظة منها، خاصة أن العقوبة تكون أكثر تشددًا في الحالة الثانية أو الثالثة، ففي كل مرة تدعي اسمًا مختلفًا.

والأوراق التي يذكر فيها أسماء المتهمين عادة ما تكون ثلاثية، مما يؤدي إلى القبض على آخرين ليست لهم أية صلة بالموضوع، وهناك أمثلة كثيرة لذلك.كان آخرها المرأة التي قضت في السجن ثلاثة وثلاثين يومًا؛ لأن اسمها يشبه اسم امرأة أخرى زورت في شهادة ميلادها، صغّرت نفسها

لكي تتزوج شابًا صغيرًا وهاربة من تنفيذ سبع سنين سجن. الغريب في الأمر أن الاسم الرابع للمرأة المظلومة يختلف عن الاسم الرابع للمدانة، لكن هذه أمور تافهة لا تهم أحد، ما هي المشكلة؟ امرأة ستسجن خطأ، هذا ليس مهمًا، فحياة الناس لا تساوي شيئًا.

وحدث أن وقف شاب ملتحٍ أمام بائع فول وفلافل، وكان البائع يمازح فتاة طوال الوقت دون مراعاة للأخلاق وللدين، والشاب الملتحي يلح عليه بأن يعطيه طلباته وهو لا يسأل، إلى أن دبت مشاجرة بينهما، وفي المساء جاء البوليس للقبض على ذلك الشاب الملتحي، وفي التحقيق سألوه: من أمير جماعتكم؟

وكان لا بد أن يذكر اسمًا، وتذكر بائع الفول والطعمية الذي تشاجر معه في الصباح، فذكر اسمه على أنه أمير الجماعة، وتم القبض على الرجل الذي ظل محبوسًا لعدة أيام إلى أن ظهرت الحقيقة.

***

واتصلت في صباح يوم جمعة في أوائل التسعينيات بزميلي في العمل الذي نقل إلى مصنع تابع لشركتنا؛ لكي يستمع إلى تمثيلية السهرة في إذاعة الإسكندرية وهي من تأليفي، فقالت زوجته: لقد قبضوا عليه فجر أمس.

زميلي هذا (لا بيهش ولا بينش)، وماشي بجانب الحائط وليس له لا في السياسة ولا حتى في الدين، لماذا يقبض عليه؟! قالت: الأمر متعلق برقم تليفون.

أخذوه من بيته وعصبوا عينيه في مساء يوم خميس وظل أسبوعًا إلى أن أفرجوا عنه؛ لأن إرهابيًا مشهورًا يعيش في لندن اتصل بأمه، فسجل الكمبيوتر نمرة زميلي هذا، ولسوء الحظ اسم والد زميلي هذا (عبد العزيز) وأم الإرهابي تزوجت بعد والده رجلًا اسمه عبد العزيز، ولها منه أولاد آخرين، فظنوا زميلي أحد إخوته من أمه. الطريف في الموضوع أن زميل لنا في الشركة أقاربه يعملون في مباحث أمن الدولة، فقال لأقاربه: ملقيتوش غير دا وتمسكوه؟ دا ما بيدافعش عن نفسه.

فقالوا: إحنا حسينا بأنه غلبان، لكن المشكلة إن عادة ما يكون هذا الغلبان رئيسًا للعصابة.

***

ذهبت في الستينيات للسؤال عن الضريبة العقارية لبيتنا والمسماه بـ(الويركو) في حي وسط الإسكندرية، فقال لي الموظف: ادفعوا بدل ما نعملوللكم قضية تبديد.

وتتساءل في دهشة، ما صلة الضريبة العقارية بقضايا التبديد؟! الأمر سهل للغاية، فالمحصل عندما يضيق بممول، يخرج ورقة من مكتبه

ويعمل محضر حجز وهمي، يكتب فيه الأشياء التي تكون عادة في بيوت المصريين: سرير، ودولاب، وترابيزة.. إلخ، ويكتب هذا المحضر بتاريخ سابق، ويمضي زميل له وعسكري موجود في المكتب، ويخرج في نفس الوقت ورقة أخرى من مكتبه بتاريخ اليوم تفيد بأنه ذهب إلى المكان الذي حجز فيه على الأثاث فلم يجده، ويتحول الأمر إلى قضية، ويفاجأ الممول بالشرطة تطالبه بتنفيذ الحبس لمدة شهر، ويبحث الممول حينذاك عن طريقة يسدد بها المبلغ، وتحدد له جلسة، تكون نتيجتها عادة إيقاف تنفيذ الحكم، ما دام سدد المبلغ.

وسألت محامي: انتم كمحامين، لماذا لا تفعلون شيئًا لمنع هذه الإجراءات؟ فقال لي: كيف نحاول منعها ونحن المستفيدين منها؟!

***

في انتخابات مجلس الشعب منذ سنوات، حدث في حينا شجار كبير بين مؤيدي مرشحين، (صبري عبد الصبور ومُحَمَّد البدرشيني) فصدرت التعليمات لضابط في قسم الشرطة التابع له الدائرة، أن ينزل بقوة ويقبض على محدثي شغب الانتخاب. فجاء الضابط بـ(البوكس فورد)، وقبض على عامل قهوة تحت بيتي دون سبب. فقام صاحب القهوة وصديقه يقبلان رأس الضابط ويديه، وهو مصر على أخذه قائلًا: أنا عايزه.

وأخذه معه بالفعل واختفى الولد عدة أيام، ثم أفرجوا عنه بعد الانتخابات، فسألته: ما الذي فعلوه معك؟ قال: كان (البوكس فورد)

مليان بشباب قابلهم الضابط في الطريق، وما إن دخلنا القسم، حتى قدمنا إلى ضابط المباحث قائلًا: هما دول اللي بيعملوا شغب الانتخابات.

الضابط لم ينزل لمكان يتقاتل الناس فيه، ويرمي بعضهم بعضًا بالمقاعد والطوب والزجاجات الفارغة، لماذا يتعب نفسه، والحل بسيط؟ شباب جاهز يحل المشكلة.

***

وفي تحقيق صحفي بمجلة (نصف الدينا) عن تجارة المخدرات، يقول أحد وكلاء النيابة: إننا غير جادين في مقاومة تجارة المخدرات، فالشرطة تعمل بنظام (المرشد) وهو تاجر مخدرات يتعاون مع الشرطة، وعندما يتم القبض عليه، تأتينا عشرات التليفونات تطالب بالإفراج عنه، كما أن هؤلاء المرشدين يوقعون بأبرياء.

في منطقة الدخيلة يبيعون الحشيش بأسعار أقل من قيمتها في وسط الإسكندرية، لذا يذهب المدمنون إليها ويشترون كمية كبيرة تكفيهم لأيام، لكن باعة الحشيش هناك يبيعون ثم يبلغون الشرطة، ويصفون سيارة المشتري، لونها وماركتها وربما نمرتها أيضًا، فتقوم الشرطة بالقبض عليهم في الطريق.

وحكى لي سائق سيارة نقل، أن رجلًا ركب معه في الطريق بعد الدخيلة وأراد أن ينزل بعد مسافة قصيرة، تاركًا لفافة على المقعد، لكن السائق قال له: خذ لفافتك معك.

وقال لي أن المرشدين يفعلون هذا، يتركون لفافة بها المخدرات فوق المقعد أو تحته، فتأتي الشرطة بعد دقائق وتقبض على السائق، الذي يفاجأ بوجود هذه اللفافة.

احتقار المهن في مصر

يقول العقاد في عبقرية الصديق إن أبا بكر الصديق كان مهذبًا ولطيفًا في معاملاته مع الناس؛ لأنه كان تاجرًا ومن أسرة تجار. لكن مفهوم التجارة عند الناس تغير وأصبح عكس ما يقوله العقاد، فيقولون عن التاجر إنه ابن سوق، بمعنى إنه يلعب بالبيضة والحجر.

وقد حدثتني قريبة لي، جاءت من الصعيد بعد أن تزوجت، وما زال في حديثها لكنة صعيدية لا تستطيع التخلص منها، قالت عن شاب من بلدتنا يسكن في البيت المجاور لهم: إنه لا يخجل ولا يستحي. قالت هذا، لأنه يبيع الحلوى والقصب على ناصية الحارة.

وحكت لي عن حادثة مثيرة، فقد ذهبت لزيارة مريض في مستشفى قريبة من باب عمود السواري، سارت في شوارع وأزقة كرموز، فرأت بائع فاكهة يقف في زقاق ضيق، اقتربت منه على أمل أن تشتري منه زيارة للمريض الذي ستزوره، ففوجئت بالبائع، ينظر إلى الأرض خجلًا، ويترك عربته وبضاعته ويمشي بعيدًا. اتضح أنه جارهم الذي يسكن البيت المواجه، والذي كان تاجرًا كبيرًا لورق الدشت بشارع ٨، لكن تجارته بارت، فاستأجر عربة يد، ووضع فوقها كميات قليلة من الفاكهة، ودار في الشوارع يبيعها دون علم جيرانه ومعارفه.

وحكى لي أديب من أصل صعيدي عن والده الذي كان يمتلك قطعة أرض لا تصلح إلا لزراعة الفجل والجرجير، فخجل من زراعتها، وتركها لرجل فقير ليزرعها، وكان والده يشحت منه السجائر ليدخنها.

وحكى لي عن أخته التي تزوجت موظفًا قريبها يعمل في القاهرة، وخرجت إلى السوق لشراء الخضار لتعد لزوجها طعام الغداء، لكن زوجها عندما عاد من عمله وجدها في قسم الشرطة، فقد ذهبت إلى السوق وسألت عن سعر الخضار، فقال البائع لها ثمنه، فصاحت غاضبة: نعم، دا إحنا بنجيبه من الغيط في البلد بمبلغ كذا. فرد عليها البائع بطريقة لم تعجبها، فثارت عليه، وربما أسرعت بضربه، فهو مجرد بائع خضار، وفي بلدتهم يحتقرون أصحاب هذه المهن. وتطور النقاش إلى أن وصل للتلاحم والتضارب والوصول لقسم الشرطة.

احتقار بعض المهن سمة من سمات المجتمع، فالحلاقون بردة، وهذا جده كان سقا، لذا يرفض أن يزوج حفيد هذا السقا لابنته، وتظل مهنة جده تطارده إلى ما لا نهاية، وستطارد أبنائه وأحفاده أيضًا.

جلست ذات مرة في دار صحفية مشهورة مع مجموعة من المحررين، لا يمتلكون أية مواهب تؤهلهم للوصول إلى الريادة، أو تبوء المناصب المهمة في الدار، فأخذوا يكيلون لصحفي زميلهم على درجة عالية من المهارة، كما أنه أديب كبير، ووصفوه بأنه تومرجي. ومعلوماتي عنه أنه كان يعمل مدرسًا للابتدائية، فلم أسأل عن حكاية التومرجي هذه، إلى أن

علمت بأنه كان مجندًا في القوات المسلحة في سلاح خدمات طبية، وقضى مدة تجنيده في القاهرة، وطالت مدة تجنيده بسبب الحرب (من ٦٧ إلى ٧٣). وكان مما يضايق هؤلاء أن زواره أكثر من زوار رئيس مجلس إدارة المؤسسة.

وتعرفت علي مجموعة من الشباب كانوا خريجي معهد الصحة (سنتين بعد الثانوية)، وتم تعيينهم في المستشفى الأميري بالإسكندرية، ولم يجدوا لهم مقاعد ليجلسوا عليها، فقال رئيسهم -وهو خريج معهد عالٍ-: اذهبوا إلي محطة الرمل، تابعوا المحلات والسينمات، وتعالوا بعد الواحدة لتمضوا على كشوف الحضور والانصراف. وعندما اختلفوا مع رئيسهم هذا، صاح فيهم بعنجهية: أنا عارف تصرفات أنصاف المتعلمين أمثالكم.

دورة سخيفة من المعاملات بين بعض الناس في مصر، فقد سمعت مهندسًا كبيرًا في الشركة التي كنت أعمل بها، يحدث مهندسًا أقل منه في العمر والدرجة ناصحًا: يجب أن تفهم أنك مهندس، يعني أعلى درجة من الإداريين. كان يحرضه ضد مدير في المشتريات حاصل على بكالوريوس تجارة، فالمهندس يرى أن طبقته أعلى من طبقة الإداريين حتى لو كانوا خريجي كليات ومعاهد عليا، وأصحاب المؤهلات العليا يتعالون على أصحاب المؤهلات المتوسطة، لدرجة أنني في العمل اقترحت عليهم -ساخرًا- أن يكتبوا على حجرة صغيرة كان بها ثلاثة من حاملي البكالوريوس: ممنوع دخول المؤهلات المتوسطة والكلاب.

وعندما كنا طلبة في المدرسة التجارية، جاء إلينا مدرس لغة فرنسية غاية في الشياكة، كان يشبه الملك فاروق، ويقلده في برم شاربيه، وارتداء ملابسه، كان كالبلهلوان في تصرفاته، يتحدث في كبرياء: ارجعوا ورا شوية، ريحة شراباتكم وحشة.

وكنا نضحك لحديثه هذا، وشرح لنا درسًا عن محلات الحلوانية، يتحدث عن التورتة، فقال في منتهى الجدية: تطلعوا من المدرسة، تركبوا الترام (كانت مدرستنا أمام الترام) وتنزلوا محطة الرمل، تسألوا عن محل ديليس، تتفرجوا على التورتة وتيجوا.

وطبعًا ضحكنا من تصرفاته الغريبة هذه.كان الوحيد الحاصل على مؤهل عالٍ من بين مدرسي اللغة الفرنسية، كل زملائه خريجي مدارس متوسطة؛ لذا لم يكن يجلس في حجرتهم، إنما يجلس مع مدرسي اللغة الإنجليزية؛ لأنهم حاصلين على مؤهلات عليا مثله.

حكيت عما يفعله هذا المدرس لصديق لي كان طالبًا في مدرسة ثانوية قريبة جدًا من مدرستنا، والدراسة فيها بعد الظهر، وبالصدفة كان هذا المدرس يدرس لهم اللغة الفرنسية، فلاحظ زميلي أنه لا يفعل معهم ما يفعله معنا من تعالٍ وكبرياء، فوقف وسأله عن سر ذلك، فقال: طبعًا لازم أعمل معاهم كدا، تقدر تقولي لما يتخرجوا حايشتغلوا إيه؟ إنما انتم حيكون لكم مستقبل كبير.

هذه نظرة عناصر كثيرة في المجتمع نحو المهن والمؤهلات. فقد قرأت حادثة في الجرائد، عن موظف في الجمعية الزراعية ضبطوه مختلسًا. فأرسل خريجي كليات الزراعة في هذه الجمعية إلى الجريدة ليوضحوا لهم أن هذا المختلس ليس خريج كلية الزراعة، إنما هو حاصل على دبلوم تجارة، كأن خريج كلية الزراعة لا يمكن أن يختلس، إنما الحاصل على دبلوم التجارة عادي جدًا أن يكون مختلسًا.

حكى لي شاب عن أستاذه في الكلية، كان واعيًا ومتينًا في مادته، وأخطأ يومًا وحكى لطلبته أنه كان (دبلوم صنايع) ودرس وكمل، ففقد تقدير واحترام الكثير من الطلبة.

ويحكون أن الرئيس حسني مبارك كان شديد الإعجاب بالدكتور عبدالعظيم رمضان، أستاذ التاريخ الحديث؛ فقد كان يثني كثيرًا على إنجازات مبارك، فكان يدعوه للسفر معه إلى الخارج، فقال الدكتور عبد العظيم رمضان: إن انجازات مبارك محطات كثيرة، في حاجة لشرح تفاصيل كل محطة. فقال فيليب جلاب بطريقته الساخرة المعتادة، وكان حاضرًا اللقاء: أصل الدكتور خبير في مسألة المحطات. وفسر الدكتور ما يقصده فيليب جلاب، فقال لمبارك: أصل أنا كنت كمساري في الأتوبيس.

وصدم مبارك، ومن وقتها فقد الدكتور عبد العظيم رمضان إعجاب واهتمام مبارك به. وكان يجب أن يزداد إعجابه به؛ فهو رجل عصامي بدأ من الصفر ونجح في مسعاه، لكن احتقار المهن عادة مصرية متغلغلة في

تراثنا وحياتنا، فعندما أنشأ جمال عبد الناصر وزارة للعمل، وعين فيها أنور سلامة وزيرًا، وهو لا يحمل شهادة عليا، عامله أعضاء الوزارة بلا اهتمام.

وهذا يذكرني بما يكتب كل يوم في صفحة الحوادث، يتحدثون عن مرتكبي الحوادث، فيصفونهم بأنهم عاطلين، فعل العاطل الفلاني كذا وكذا، كأن كلمة عاطل هذه سبة أو صفة ذميمة، مع أن ملايين الشباب لا يجدون عملًا، وهم عاطلين رغمًا عنهم.

هدايا البابطين

في يوم الجمعة ١٠ يناير ٢٠٠٣، تقابلت مع صبري أبو علم ورجب سعد السيد في فرع الاتحاد (دور أرضي في شارع الأنباكيرلس، المواجه لقسم شرطة الرمل)، قال صبري لي إنه في حاجة إلي لكي أساعده في توصيل مكتبة خشبية إلى البيت، اشتراها من بائع في شارع مصطفى كامل بباكوس، فقد أحيل إلى المعاش في ٣ ديسمبر الماضي، وصرف مستحقاته التأمينية، ويستطيع الآن أن يشتري بعض الأشياء التي كان يتمنى شراءها.

كان هناك أحمد فضل شبلول، والدكتور مُحَمَّد أبو شوارب، ورجل فلسطيني يعمل في مؤسسة البابطين، تحدث هذا الرجل عما تفعله المؤسسة التي يعمل بها، ولا أدري ما الذي جعله يتحدث عن نوادي الأدب في السعودية، فقال ما معناه: إن هذه النوادي لم تصدر أية أعمال ذات قيمة؛ لأن كل نادٍ ينفق عليه أمير من أمراء آل سعود، فإذا امتنع توقف الصرف، في حين أن مؤسستنا أنفقت كذا وكذا.

فسألته ببساطة شديدة: من الذي ينفق على كل هذا؟ فقال: واحد بس. قلت: ما انتم زيكم زي نوادي الأدب في السعودية، ينفق عليكم فرد. فأحس بالضيق ولا أذكر بما رد علي وقتها.

انشغلت مع رجب وصبري وباقي الموجودين، ودخل الدكتور أبو شوارب وموظف مؤسسة البابطين إلى حجرة في الداخل، وجاءا بأكياس كبيرة زرقاء، واضح أن بها نتائج وهدايا أخرى، وقدما واحدة لصبري وأخرى لرجب سعد السيد وواحدة لشبلول. موظف المؤسسة لم يعجبه رأيي فأراد أن يشعرني بأهميته، وبقدرته على المنح والمنع!

سرت بين رجب وصبري وهما يحملان الكيسين الأزرقين، ابتسمت لما حدث، استأذن رجب وعاد إلى بيته، وذهبت مع صبري إلى الدكان في شارع مصطفى كامل، فقد رأى المكتبة وهو آتٍ إلينا في فرع الاتحاد. وساوم البائع فاتفقا على ثمانين جنيهًا، دفع صبري منها عشرين، والباقي عند الاستلام.

وقف الرجل معنا خارج الدكان نبحث عن تاكسي بشبكة فوقه، معظم التاكسيات التي تمر أمامنا بدون شبكة، قال صبري للرجل: خذ فلوسك في الأول، خشية أن ننهمك في البحث عن تاكسي وأنسى أن أدفع لك. فقال الرجل: حصل هذا منذ وقت قصير جدًا، اشترى رجل طقم بسبعمائة جنيه، دفع منها خمسين، وجاء بسيارة وأخذ الطقم دون أن يدفع الستمائة وخمسين الباقية، وبعد أن مشى تذكر ابني هذا، ونحن لا نعرف مكان بيته. حدث حزن وغضب في البيت، لكننا توصلنا إلى مكانه عن طريق سائق السيارة النقل. قال الرجل إنه فضل أن يدفع المبلغ له هو، عندما وجد ابنه صغيرًا في السن.

مرت التاكسيات التي بلا شبكة، وثلاثتنا وقوف أمام الدكان نشير لكل تاكسي يمر، حكى الرجل عن بلدياته الذي يعمل في الروبابيكيا، قال: إن امرأة مسنة نادته ليشتري منها أجولة ممتلئة بورق الجرائد. وقف بلدياته هذا خارج الشقة يفحص الجرائد الكثيرة ويساوم المرأة، وفجأة جاء ابنها من أمريكا، فضمته لصدرها، وبكت من السعادة، ودخلا الشقة وهما يتحدثان، تاركين حقائب ابنها الممتلئة بالدولارات، وعندما تذكراها، وخرجا لأخذها لم يجداها، فقد أخذها تاجر الروبابيكيا مع أجولة الجرائد القديمة.

أشرنا لتاكسيات تأتي من بعيد، وعندما تقترب نكتشف أنها بدون شبكة، والمكتبة لن ترتاح ولا تستقيم فوق تاكسي بدون شبكة. وأكمل الرجل حكايته: سافر بلديتنا إلى الصعيد، وبنى فيلا كبيرة، تحدث الكل عنها في الصعيد وغيره، وأصبح الرجل غنيًا جدًا، وبعد سنتين استطاعت الشرطة أن تصل إليه، ووضعوا الحديد في يديه، وجاؤوا به مكبلًا إلى دكاني هذا؛ لأقول رأيي فيه، لم أعرفه أول الأمر، فقد كان كالشبح، ما فتتش عليه سنة تالتة إلا ومات، وابنه الشاب جات له رصاصة طايشة جابت أجله.

وجدنا تاكسي بشبكة أخيرًا، حملت المكتبة مع صبري وانطلق التاكسي إلى شارع عرفان، حيث يسكن صبري أبو علم.

العلاقة بين العسكريين والمدنيين

بدأت هذه المشكلة عندما قام العسكريون بثورة يوليو ٥٢، فارتفعت قيمتهم، وقد ذهبت عام ١٩٧٤ لزيارة أخي المجند في البحرية في أول تجنيده، ووقفنا أمام مساعد (صول) مسن، قدمنا له البطاقات ليدونها في دفتر أمامه، وجلست بجواره في انتظار أن يسمحوا لي بزيارة أخي. فحكى لي عما حدث منذ أيام، فقد اختلف مع أحد الزوار فشكاه لضابط قريبه، فأمره الضابط بأن يعتذر له، فقال الصول للضابط: لا يمكن لعسكري أن يعتذر لمدني.

كان الصول مقتنعًا بأن العسكريين أرقى درجة من المدنيين، ولو أخطأ العسكريون في حق المدنيين، فلا يستحقون منهم الاعتذار.

تفكير غريب فكلنا واحد، ولا يمكن أن نقول إن المدنيين فئة والعسكريين فئة أخرى، بل هي فئة واحدة متداخلة. وقد سألتني قريبتي التي لا تجيد القراءة والكتابة: فيه أعلى من الظابط؟

وقد شاعت قصة في الستينيات –وقت أن كان ضباط الجيش هم الأقوى– أن رزقت إحدى الأسر بطفل، فاجتمعوا حوله لرسم طريق حياته. تمنت أمه أن يكون طبيبًا في المستقبل، لكن والده تمنى لو كان مهندسًا، وخالته أرادته شيئًا آخر، لكن الجد قال: أنا من رأيي أن يكون

ضابط جيش في الأول، وبعد ذلك، يتخصص فيما يريد، طبيبًا أو مهندسًا.. إلخ.

وشاعت قصص في المجتمع الله أعلم بمدى صحتها، أن اشتكى ضابط جيش إلى المشير عبد الحكيم عامر من أن صاحب البيت الذي يسكنه يظلمه، فضاق المشير بحديث ضابطه، وقال له: إن لم تأخذ حقك منه بالعافية لن أرضى عنك.

وقد تحمس الكثير من مخرجي التليفزيون لتحويل روايتي الهماميل إلى مسلسل تليفزيوني، وبعد رحلة شاقة وافقت رقابة التليفزيون على التحويل، وكان السيناريست هو فايز غالي (عليه رحمة الله)، والمخرج مُحَمَّد السيد عيسى، لكن المرحوم يحيي العلمي –وكان مديرًا في التليفزيون– أصر على أخذ رأي وزارة الداخلية في الرواية، ونشرت جريدة الأخبار رفض الرقابة للمسلسل؛ للمغالاة في إظهار سلبيات الشرطة.

وقتها اندهشت، فلو اعترضت نقابة المهندسين مثلًا لتصوير أحد أعضائها في صورة سيئة، لا تملك إلا أن ترفع دعوى قضائية لوقف عرض المسلسل أو الفيلم، إنما الشرطة لها حق الموافقة أو الرفض.

ما أحكيه حدث منذ سنوات طوال، ولكنني الآن أحس بأنني أخطأت عند كتابة رواية (الهماميل)، فقد صورت شخصيتين من البوليس أحدهما قبل الثورة كان ضد الحركة الوطنية المصرية، وشقيقه بعد الثورة كان سيئًا أيضًا، علمًا بأنني ذكرت بعض ضباط الشرطة الوطنيين الذين كانوا

يتعاملون مع جمعية التضامن الأخوي التي تغتال الإنجليز وعملاءهم، لكنني لم أعطهم القدر الكافي الذي يتوازن مع ما أظهرته عند رسم العناصر السيئة الأخرى من الشرطة، رغم وجود هذه العناصر المضيئة في الحقيقة وبشكل واضح وعظيم.

فقد كانت الجماعات الوطنية قبل الثورة لا تخلو من ضباط شرطة، يقومون بتدريب الأعضاء على استعمال السلاح في المقطم، أو في الصحاري والجبال الأخرى. وبطولاتهم الوطنية لا تحصى ولا تعد، فأحدهم أخفى بطل وطني في حجرة حجز قسم الشرطة الذي يعمل به، وبحث الإنجليز عنه في كل مكان دون جدوى.

وأذكر عند افتتاح فرع اتحاد الكتاب في الإسكندرية، وقد حضر الكثير من أعضاء مجلس إدارته، وأقيم سرادق كبير أمام المقر الذي كان قريبًا من قسم شرطة الرمل، وتم الاتفاق مع سقاة يقومون بتقديم المشروبات للأعضاء والضيوف، وجلست مع أصدقائي أمام تقاطع للشارع يجلس فيه مجموعة من ضباط القسم، جاؤوا لحماية الاحتفال، خاصة أن محافظ الإسكندرية قد أناب عنه موظفًا كبيرًا في المحافظة. فلاحظت أن السقاة الذين جاؤوا لخدمة الأعضاء وضيوفهم قد تركوا كل شيء، وتفرغوا لخدمة الضباط، فتحدثت مع من معي في هذا، وأشرت إلى هذا المشهد الغريب.

وقد كنت أجلس كثيرًا في قهوة السمان على البحر في حي بحري، وحكى لي صاحب مقلة لب هناك، أنه شاهد سيارة تدهس رجلًا، وهي تلف بسرعة من على البحر إلى شارع رأس التين في مواجهة القهوة، فذهب ليشهد بما رأى، وقال لي: لقد غلبوني، كل يوم والثاني أغلق المقلة وأقضي الساعات عندهم، حتى قلت لهم: أنا أستاهل ضرب الجزمة إني جيت شهدت.

وصار هذا مألوفًا، الناس تخاف أن تذهب للشهادة حتى لا يتلقوا سوء المعاملة في القسم. وذلك ذكرني بما حدث عندما ركبت أتوبيس من أمام شركتي في منطقة الطابية، وفي حي رشدي أطلق السائق نفيرًا عاليًا، لم يعجب أحد الشبان الذي كان منحنيًا على سيارته مع كهربائي سيارات هناك، فحدثت مشادة بينه وبين السائق، فضرب زجاج الأتوبيس بالمفك الذي يحمله فكسر الزجاج، ونزلنا من الأتوبيس؛ لأن سائقه سيذهب لعمل محضر في القسم، وسرت لكن لسوء حظي شاهدني أحد ركاب الأتوبيس، وسألني: مش كنت راكب الأتوبيس؟ قلت: نعم. قال: يا ريت تيجي تشهد مع السائق، قلت ما فيش مانع.

ودخلنا القسم، وجلسنا متجاورين، في انتظار أن يأخذ الصول أقوالنا، لكنه كان مشغولًا في كتابة محضر آخر، وتم الاتفاق بين إدارة النقل العام، ووالد الشاب على دفع ثمن الزجاج، وخرجنا من القسم، لكن رفيقي قال لي: إحنا مسألناش السواق إن كان محتاج لنا ولا لأ. فعدنا إلى القسم لسؤاله، وإذ بضابط شاب يأتي نحونا غاضبًا: هو كازينو داخلين

طالعين؟! سرت حزينًا؛ لأنني سمعت كلام هذا الرجل، وعرضت نفسي للمهانة.

والشرطة تعلم هذا جيدًا؛ لهذا أعلنوا أيام هوجة الإرهاب أن من لديه معلومات يرسلها بسرعة، وله الحق في عدم ذكر اسمه وبياناته لو أراد.

عندما نشط الإرهاب في ثمانينات القرن الماضي، قلت هذه فرصة لكي تحسن الشرطة معاملة الشعب الذي تحتاج إليه في مواجهة هذا الإرهاب، لكن للأسف لم يحدث هذا، وظلت الثقة مفتقدة بينهما إلى الآن.

كنت أسير في شارع (جميل ثابت) مع صديق لي كان في السنة النهائية من كلية التجارة، فقال: إن فرصة تجنيده في الجيش ضعيفة جدًا، فهم يختارون نسبة قليلة جدًا من حاملي المؤهلات العليا. لكن بعد أيام قليلة قامت حرب يونيو ٦٧، وانهزمنا من الجيش الإسرائيلي هزيمة مريرة، وتم تجنيده بالجيش، بعد أن غيرت الدولة سياستها، واتجهت إلى تجنيد الشباب الصالح من الحاصلين على المؤهلات العليا، وكان ذلك السبب المباشر في نجاحنا في اجتياز خط بارليف، ثم الانتصار على الجيش الإسرائيلي في ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

وهذا هو الحل بالنسبة للشرطة، لا بد من الاستعانة بالحاصلين على مؤهلات عليا للعمل في الحراسة وفي التعامل مع المدنيين، فلا شك أن سوء المعاملة سيقل تدريجيًا وسيتلاشى بعد ذلك.

الدعاة الجدد

اكتشفت جبران خليل جبران في فترة مبكرة من حياتي، وكنت أعتمد في قراءاتي على الاستعارة من مكتبة البلدية بشارع منشا في الإسكندرية، فقرأت روايته الأولى (الأجنحة المتكسرة) وهي تحكي عن حياته عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، إذ ترك بلدته (بشري) وسافر إلى بيروت، فقابل هناك تاجرًا غنيًا كان صديقًا لوالده في شبابه، أعجب الرجل به ودعاه إلى بيته وقدمه إلى ابنته الجميلة سلمى، فنشأت بينهما قصة حب جميلة وطاهرة، فيقول عن ذلك: "في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إليّ من وراء أجفان امرأة جميلة، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم" (صفحة ٢٤).

"هذا الرجل المجرم هو مطران الضاحية، شخص يأتلف في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء، وهو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب" (صفحة ٢٤).

"ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه عناصر المفاسد والمكاره، مثلما تنقلب العقارب والأفاعي على جوانب الكهوف والمستنقعات" (صفحة ٢٤).

لقد أراد هذا المطران الفتاة الجميلة الغنية لابن أخيه طمعًا في مال أبيها، ولم يستطع التاجر الطيب أن يخالف أمر المطران، وزوّج ابنته إلى هذا

الشاب الفاسد مضطرًا، فأنجب منها طفلًا ثم قضى عليها بطمعه ومجونه، وماتت بعد وقت قصير، ووقف جبران أمام قبرها يبكي، بينما المطران وابن أخيه يتقبلان العزاء.

"أما أنا فبقيت واقفًا منفردًا وحدي، وليس من يعزيني على مصيبتي، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ" (صفحة ١٣٢).

ويقول جبران في صفحة ٥٦:

"إن رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه نفوسهم من المجد والسؤدد، بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا نسباءهم في مقدمة الشعب، ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله. إن مجد الأمير ينتقل بالإرث إلى ابنه البكر بعد موته، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الإخوة وأبناء الإخوة في حياته، وهكذا يصبح الإنسان كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة، تمتص دماءها بأفواه عديدة".

قرأت هذه الرواية عندما كنت صبيًا، وقرأتها مرات عديدة بعد ذلك، آخرها عندما صدرت منذ سنوات قليلة في سلسلة القراءة للجميع. وهي رواية من النوع الذي يحكى، وأفضل أنواع القصص هو الذي تحكيه وتستشهد به في جلساتك مع الناس.

يتحدث جبران عن رؤساء الدين في الشرق، ولله الحمد، الدين الإسلامي ليس فيه رؤساء دين، لكن البعض أرادوا أن يكونوا رؤساء دين

(بالعافية)، ومنهم الذين ظهروا في مصر في الآونة الأخيرة، نتاج طبيعي لحالة الانفلات الاقتصادي التي نعيشها الآن، فهم أبواق هذه الطبقة، يحصلون منها على الأجر أولا بأول.

فعندما أعلن المفتي –مشكورًا– بأن لا بد من عودة تسعير السلع رحمة بالفقراء، صاحت الأبواق بأن هذا سيعيدنا إلى الاشتراكية والشيوعية (يقصدون عصر عبد الناصر، مع أن تسعيرة السلع موجودة من قبل ثورة يوليو ٥٢).

إنهم يذكرونني بالكهنة في أيام قدماء المصريين الذين أفسدوا الحياة على الناس، فكانوا يدافعون عن أنفسهم في دفاعهم عن الآلهة، ولقد واجهوا اخناتون عندما دعا إلى عبادة إله واحد هو آتون؛ لأن مصالحهم قد أضيرت، وبزوال عبادة آمون ستضيع منهم الهبات والقرابين التي تقدم في المعابد. وفي ذلك يقول المصري البسيط: "لا تدعوا كاهنًا إلى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عن ذنوبي إن كنت مخطئًا، ولا تسرع بي إلى الجنة إن كنت بارًا. إن إرادة البشر لا تغير مشيئة الله، كما أن المنجمين لا يحولون سير النجوم".

وكهنة آلهة الجاهلية كانوا سببًا في انتشار هذه العبادات السخيفة، فبزوالها سيزول عنهم ما يجنونه من مال وغيره من أشياء.

لقد ظهرت فئة سميت بعد ذلك بشركات توظيف الأموال، وهم مجموعة من النصابين، بحثوا فوجدوا أن أقصر السبل للوصول إلى أموال

الناس ادعاء التدين، فارتدوا القفاطين القصيرة وأطلقوا لحاهم وسرقوا الناس بالاستعانة برجال آخرين يدعون أنهم دعاة.

وقد قابلت في الشركة التي كنت أعمل بها شباب أعلنوا أنفسهم أوصياء على زملائهم في العمل، أحدهم أقل مني في كل شيء، سار معي حتى باب بيتي ليحاول أن يقنعني أن كتابة القصة حرام، وآخر كل شيء فعلته أمامه هو حرام في نظره، رآني ألوح لزميل من بعيد، فقال لي هذا حرام، فقد كانوا في الجاهلية يلوح بعضهم لبعض، ورأى زر قميصي الأعلى مفتوحًا، فحذرني لأن هذا حرام، وضبطني أصفر بفمي يومًا، فقال لي إن هذا من الشيطان، حتى عندما وجد ملفًا أضع فيه الرسائل الخاصة الواردة لي من زملائي الأدباء، قال هذا حرام لأنك تعطي اهتمامًا بالناس، والمفروض أن تعطي اهتمامًا أكثر لله.

هؤلاء الناس يبحثون عن دور في الحياة، عن مال وشهرة ومكانة، والله لم يعطهم أي تميز، لا هم بأصحاب صوت جميل ليغنوا ولا هم يجيدون التلحين أو العزف على آلات موسيقية، ولا يعرفون الرسم ولا يجيدون كتابة جملة مفيدة، فأسهل الطرق للشهرة هو أن يكونوا في مهنة لا تحتاج لأي تميز، تعتمد على تغيير بسيط في الشكل، وطريقة معينة في الكلام، وقلة عقل مستمعيهم. عندما أرى أحدًا منهم أقول لنفسي: أما كان أجدى له لو بحث عن طريق آخر أكثر جدوى وفائدة له وللناس؟!

النفخة الكدابة

يتحدث الكاتب الكبير الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه القيم (قيم من التراث) في فصل بعنوان (النفخة الكذابة)، يتحدث عن المغرورين الذين يريدون أن يحمدوا بما ليس فيهم، فيقول: "وللتفرقة بين أصحاب النفخة الصادقة الواثقة بنفسها والنفخة الكذابة التي تخفي خواءها، أهمية كبرى؛ لأن رجال الفئة الأولى إنما هم العظماء حقًا، الذين هم ذخيرة أوطانهم وشعوبهم، بل والإنسانية كلها، وأما رجال الفئة الثانية فهم –على المدى الزمني الطويل– نكبة على أوطانهم وشعوبهم؛ لأنهم كثيرًا ما يحجبون الحق بباطلهم إلى أن يشاء الله للحق ظهورًا وانتشارًا". (قيم من التراث ص ٢٦٦).

وفي مجالنا الأدبي تقابل نماذج عديدة من أصحاب الحالة الثانية (النفخة الكذابة)، ففي الإسكندرية عدة حالات واضحة للغاية، وأصحابها يعانون مرضًا نفسيًا بدرجات متفاوتة، أول هذه النماذج وأعلاها. رجل يقترب من الثمانين (مرسي المرزوقي)، لم تنشر له قصة واحدة في مجلة أو جريدة معروفة، فتوارى خلف الروايات، (وكثير من المدعين يتوارون خلف الرواية، فإذا كتبوا قصصًا قصيرة سرعان ما ينكشفوا وتظهر حالتهم المريضة؛ لأن القصة القصيرة يسهل قراءتها، إنما الرواية تتوه وسط الصفحات الكثيرة).

طبعت هيئة الكتاب له رواية منذ أكثر من أربعين عامًا، ولا أدري كيف طبعوها ووافقوا عليها، وكتب رواية أخرى طبعها على حسابه الخاص بعد خروجه على المعاش، وقدمها إلى الحركة الثقافية فلم يهتم بها أحد؛ فهي صعبة للغاية، وكتاباته كلها عسيرة الهضم، ويفرح بهذه الصفة، فيقدم إليك كتابه قائلًا: صعب عليك.

كتاباته تشبه الصوت القبيح، أو الوجه الذي لا ترتاح لرؤيته، فلا تستطيع أن تكمل صفحات قليلة من الكتاب.

يتحدث في زهو مفتعل، يحاول أن يحمي نفسه، التي تعلم أنها ضعيفة ولا تملك أية موهبة. كل الكتاب في نظره ضعاف وغير قادرين على الكتابة الصحيحة. وانتشارهم سببه أنهم يطبطبون على النقاد وعلى المسؤولين في دور النشر والجرائد والمجلات، وهو لا يفعل هذا، ويقول للأعور انت أعور في عينه، مما أدى إلى تأخره. وقد قال لي يومًا إنه وماركيز الوحيدان القادران على الكتابة الحديثة، وهو قبل ماركيز، واستدرك قائلًا: من حقي أن أقول عن نفسي ما أشاء.

قرأت صفحات قليلة من رواية له مكتوبة بالآلة الكاتبة، فوجدت فيها كلمات غير مفهومة فبحثت في القواميس التي عندي، فلم أجدها، وعندما سألته عن ذلك، قال: (مرسي المرزوقي) له قاموسه الخاص.

وعندما حدثته عن قصة لي نشرت في جريدة الأهرام، قال: اللي ميعبرنيش ما عبرهوش. ثم استدرك قائلًا: (مرسي المرزوقي) تترفض له قصة؟! على أساس أنه أرسل كثيرًا إلى جريدة الأهرام فلم ينشروا له.

قابلته أول مرة في قصر ثقافة الحرية، فحدثني عن رواية له، وذكر لي اسمها، فقلت له: أعرفها، فقد كنت في هيئة الكتاب بالقاهرة مع الأستاذ عبد العليم القباني، ووصى عليها أمامي. وإذ به يصرخ: مش أنا اللي يوصوا على أعماله، لو فعل القباني هذا، سأذهب وأسحبها. قلت له مندهشًا: توصيته ليس فيها إساءة لك، فلو وافقت لجنة النشر على نشرها، فقد استعجل القباني نشرها.

وذهبت معه إلى قطاع الثقافة في شارع ونجت؛ لكي يقدم إليهم رواية ليطبعوها له ضمن النشر المحلي، فقالت المديرة المسؤولة بأدب جم: حاضر، سأرسلها إلى الدكتور المسؤول عن النشر ليقول رأيه فيها. وإذ به يصيح: فلان دكتور على نفسه، (مرسي المرزوقي) لايقال له هذا الكلام. وقرأت لجنة النشر الرواية، فإذ بها ضعيفة ولا تستحق النشر، وقال الدكتور المسؤول: من رأيي ألا نحرج رجلًا في هذه السن، وأقترح أن نعتذر عن نشرها لأن عدد صفحاتها كبير جدًا.

وأخذ يطارد الدكتور مُحَمَّد زكي العشماوي، ويطلب منه قراءة روايته التي طبعها على حسابه، فأحس الرجل بالحرج، فطلب من أستاذ في الكلية

من تلاميذه أن يقرأها، ويقول له رأيه فيها. وأخبرني هذا الأستاذ بهذا، وسألته عن رأيه فقال لي بضيق وقرف: أنا عارف بيعملوا إيه دول ؟!

وعندما علم مرسي المرزوقي بأن الأستاذ فلان قرأ روايته، سأله عن رأيه فيها، فقال الرجل في ارتباك: كوني قرأتها، دا في حد ذاته إنجاز. أراد بقوله هذا أن يقول إنها سيئة، لكنه نظر إلي وقال سعيدًا: سامع؟!

وقد تصدى هذا الأستاذ لمناقشة هذه الرواية مع كاتب قصة معروف، كان يقدم ندوة شهرية بقصر التذوق بالإسكندرية، فأظهرا عيوبها، ونالا من مؤلفها بدرجة كبيرة جدًا، مما أثاره. الغريب أنه يحكي للآن على أنه واجههما وجعلهما لا يساويان شيئًا.

وسافر الأستاذ الدكتور معارًا إلى بلد من بلاد الخليج، وابتعد الكاتب المعروف عن إدارة ندوته في القصر، فاعتبر صاحبنا أن هجومه عليهما أدى إلى ترك الدكتور للإسكندرية ومصر كلها، واستغناء إدارة القصر عن خدمات الكاتب المعروف.

وقد صور السيناريست الكبير وحيد حامد هذه الحالة ببراعة في فيلمه (الدنيا على جناح يمامة)، فقد أخذت البطلة (ميرفت أمين) التاكسي من صاحبه (محمود عبد العزيز)، وذهبت به إلى مستشفى الأمراض العقلية لمقابلة حبيبها القديم (يوسف شعبان)، وحاول سائق التاكسي دخول المستشفى، فشك الحارس فيه، وظنه هاربًا من الداخل فأدخلوه المستشفي بالقوة، واتضح أن شبيهًا له محجوزًا به، وعندما ذهبوا

لاستدعاء المريض واجههم بطريقة ذكرتني بمرسي المرزوقي، فقد قال للتومرجي: لا بد أن الدكتور يريدني لكي يلاعبني شطرنج، وسأغلبه وبالجزمة.

والمرزوقي، كل الناس ممكن أن يناظرهم، وفي كل المجالات، وسيغلبهم، ويذكر دائما كلمة (وبالجزمة). فقد تحدثت معه عن أستاذ كبير تخصص في الكتابة عن اليهود والصهيونية، فقال لي: أنا مستعد أن أناظره وسأغلبه، وبالجزمة.

ورجل يدعي أنه حاصل على الدكتوراه، (وفي بلادنا الكثير ممن يدعون أنهم حاصلون على درجة الدكتوراه دون أن يحصلوا عليها) أسس جمعية أدبية وضم إليها الكثير.

وفي جمعيته هذه يجتمع بمجموعة من الزجالين والكتاب، ويفرض عليهم سطوته، وقد حكى لي أحدهم بأنه أخذ هذه المجموعة وزار قناة تليفزيونية محلية، وقبل أن تتحرك السيارة بهم، سألهم: ماذا ستقدمون؟ فذكر كل منهم الذي سيقوله في القناة، فقال لهم: طيب، كلكم حتقولوا، وأنا حقعد كدا؟!

وأخذ قصيدة من أحدهم، وتدرب على إلقائها، وألقاها في القناة التليفزيونية، وتعامل معه العاملون فيها على أنه كاتب كبير، ورئيس كل هؤلاء المبدعين.

والغريب أنه رأس اللجنة الثقافية في الحزب الوطني بالإسكندرية لمدة طويلة، ومن شدة إعجاب المسؤولين به أطلقوا اسمه على الشارع الذي تقع فيه جمعيته الأدبية، وهو ما زال حيًا يرزق.

وزميل آخر، حظه التعس أوقعه في صداقة كاتب، فأراد أن يكون مشهورًا مثله، ولماذا لا يكون مثله، وحروف الهجاء معروفة، وهو يجيدها، فلماذا لا يكتب بها قصصًا وشعرًا وسيناريوهات وأغانٍ، بل حاول الغناء رغم تقدمه في السن، وأخيرًا توصل إلى عمل لا يكلفه كثيرًا، أن ينقل كلمات مكتوبة في مجلات فنية، أو يسمع ما يحكيه الفنانين في الإذاعة والتليفزيون عن حياتهم وتاريخهم، ويقول هذا الكلام في الندوات، ثم أعطى لنفسه مهنة (مؤرخ فني)، ولاحظ أن معظم الندوات تهتم بالأدب وليس بالموسيقى والغناء، فضم للمهنة الجديدة، كلمة (وأدبي). وفي ذكري انتصارات أكتوبر، تحدث عن معركة عسكرية مشهورة ومعروفة، وقدم نفسه لمذيعة الإذاعة: فلان الفلاني (مؤرخ فني وأدبي وعسكري).

محاولة اغتيال التأمين الصحي في مصر

دخلت على مختص الأمراض الباطنية في عيادة منشا بالإسكندرية التابعة للتأمين الصحي، كان يتحدث مع الممرضة عن السيد راشد رئيس اتحاد العمال، بعد الاستغناء عن خدماته. وأكمل الطبيب حديثه مع الممرضة وأنا أنتظره ليكتب لي العلاج الذي يكرره كل ثمانية أشهر، (فالنظام المتبع أن يكتب لي علاج شهرين، ويكرر ستة أشهر ثانية بمعرفة الطبيب الممارس).

وفي زيارتي الثانية، ذكرت الممرضة اسم مستشفى الجمهورية، وهي قريبة من بيتي، فقال الطبيب في غبطة: هذه المستشفي ستكون تابعة لنا بعد تطبيق النظام الجديد للتأمين الصحي. فقلت له: هل ستكون هناك زيادة في الخصم من المرتب أو المعاش؟ فقال مبتسمًا: لا، هذا النظام اختفى، سيكون الاشتراك بمبالغ أخرى. كان سعيدًا؛ فالأطباء سيحصلون على مبالغ أكبر في النظام الجديد. قلت له: يعني يريدون أن يقضوا على آخر إنجازات جمال عبد الناصر. قال باستخاف: جمال عبد الناصر مات وراح لحاله.

قلت للطبيب الذي اسمعه في كل زيارة يتحدث مع الممرضة في السياسة: هناك طبيب سكندري اسمه حمزة البسيوني، هو الذي استدعاه

جمال عبد الناصر وطلب منه أن يقدم إليه مشروعًا للتأمين الصحي، يحمي المواطنين من الأمراض، ويؤمن لهم فرصة العلاج. وفعل الدكتور البسيوني هذا، وتم تطبيق نظام التأمين الصحي على الإسكندرية، وبعد نجاح التجربة تم تطبيقه على باقي مدن مصر. واكتشفت أن هذا الطبيب لا يعرف حمزة البسيوني، كما أنه غير راضٍ عن نظام التأمين الصحي بحالته الراهنة؛ لأنه يتعشم بأن يكسب أكثر من النظام الجديد الذي تسعى وزارة نظيف على تطبيقه.

تذكرت مقولة للدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء في مجلس الشعب، عند مناقشة قانون التأمين الصحي على طلاب المدارس، قال:في الأيام اللي جاية اللي معندهوش تأمين صحي يا عيني عليه.

وقد كان لي صديق وزميل يعمل معي في الشركة التي كنت أعمل بها، اختلف مع رئيس الشركة وقدم استقالته، لكن رئيس الشركة رفضها، بعدها بأشهر قليلة أصيب صديقي بمرض خطير في القلب، ولم يأتِ للعمل ثانية، وكنت أزوره في بيته باستمرار، فقال لي: كنت حغلط غلطة عمري لو قبلوا استقالتي، واعتمدت على العمل الحر، التأمين الصحي يصرف لي الآن أدوية القلب بمبالغ كبيرة شهرية، ويحتجزني في مستشفياته عند اللزوم، ماذا كنت سأفعل بعد أن أصبحت غير قادر على العمل؟!

وقد اتفقنا على السفر إلى القاهرة أنا وشوقي بدر يوسف ومُحَمَّد الجمل، لكنني أحسست بآلام في صدري طوال ليلة السفر، وكدت أعتذر عن مرافقتهما، وسافرت وأخذت معي دفتر التأمين الصحي.

كنا ننام في شقة خاصة بمحمد الجمل الذي كان ينام في حجرة مستقلة، وأنا وشوقي على سريرين في حجرة أخرى. فشعرت مساءً بآلام في صدري، فأيقظت شوقي وارتدينا ملابسنا وخرجنا إلى الشارع الذي لا نعرف فيه أحدًا، سألنا سوبر ماركت سهران إلى هذا الوقت المتأخر: أقرب عيادة تأمين صحي؟. فقال: شارع الطيران. وركبنا تاكسي وذهبنا إلى هناك، هناك عملوا لي رسم قلب، ووجدوا أن ضغط الدم مرتفع، فأعطوني أدوية العلاج باهتمام شديد، وعدت إلى البيت معافى.

لو لم يكن التأمين الصحي موجودًا، ماذا كنت سأفعل؟!

وجلست لمدة طويلة في عيادة منشا في انتظار طبيب الأنف والأذن والحنجرة، فحكت لي سيدة مسنة، قالت إن زوجها في شبابه، ذهب إلى إدارة التأمين الصحي في ستانلي، وطالبهم بألا يخصموا منه شيئًا، فهو لا يمرض، وليس في حاجة إلى تأمينهم الصحي. وبعد مقابلات ومناقشات كثيرة وحادة، قرروا عدم خصم شيء من أجره لصالح التأمين الصحي.

ثم أكملت السيدة في أسى: الآن بعد أن كبر وشاخ، تكالبت عليه الأمراض، ومعاشه لا يكفي للعلاج، فذهب إليهم يتوسل إليهم لكي يعيدونه للتأمين الصحي بلا جدوى.

إنهم يسعون الآن للقضاء على نظام التأمين الصحي الذي أنقذ آلاف المصريين من الموت، وعالج الغني والفقير سواء بسواء. ولكي يتم لهم هذا يسعون لتخريبه في الأول (وهذا دأبهم إذا أرادوا بيع مصنع مثلًا، يخربونه ويوقفون العمل فيه، ويسيئون إلى عماله وموظفيه، لكي يتم بيعه بسهولة ودون أن يغضب أحد).

وهذا ما يفعلونه الآن مع التأمين الصحي، حتي يضج المتعامل معه، ويتمنى تغييره. سوء معاملة، تقليل عدد الأودية التي كانت تصرف، عدم الاهتمام من الأطباء. حتي يحس المتعاملون أن التأمين الصحي (ممنوش فايدة)، ويذهبون إلى أطباء خارجه يكلفونهم مبالغ كبيرة، ويكتبون لهم روشتات غالية، تصرف على حسابهم، فإذا تقدمت الوزارة بمشروع جديد، أحس الناس بأنه الأفضل.

سيناريو تقسيم مصر

في أوائل عام ١٩٨٢ نشرت مجلة (كيفونيم) الإسرائيلية الناطقة بلسان المنظمة اليهودية العالمية، دراسة اعتبرتها الأوساط الإسرائيلية بمثابة ورقة عمل للحكومات المتعاقبة والمخططات الأخرى، التي تحدثت عنها الدراسة الإستراتيجية، تشمل تفتيت الدول العربية بأسرها إلى كيانات صغيرة عن طريق تأجيج الأقليات في كل دولة، ودعمها بجميع السبل المتاحة، وتقدم الدراسة تصورات موسعة لكيفية تفتيت البلاد العربية، خاصة دول المواجهة مع إسرائيل، وما يهمنا هنا محاولة تفتيت مصر.

كان الاتجاه أن تتحول كل دول منطقة الشرق الأوسط إلى (اللا دولة)، لتبقى إسرائيل الدولة الوحيدة في المنطقة. وقد فعلوا هذا بالاجتياح العسكري لعدد من الدول، فقضوا على الدولة في الصومال التي تحولت إلى ميلشيات متناحرة منذ سنوات طويلة، وكلما سادت مجموعة أزاحتها أخرى، وسيطرت إلى حين، إلى أن تأتي مجموعة جديدة لتزيحها وتتولى السيادة بدلًا منها، وأظن هذا سيظل لسنوات عديدة. وقضوا على الدولة في أفغانستان التي اجتمعت معظم دول العالم الأقوياء لمحاربتها، وما زالوا يحتلونها للآن، ثم العراق بعد أن فجروا حالة الاستقرار التي كانت تسودها طوال حكم صدام حسين، فتناحرت كل الاتجاهات والملل.

ثم في فلسطين في الضفة الغربية وغزة، وجعلوا الفلسطينيين يتحاربون، بعد أن كانوا معًا ضد الاحتلال الإسرائيلي، ويحاولون الآن في السودان ولبنان وسوريا وإيران.

وكان لمصر نظام آخر، فلن تزال الدولة بالجيوش مثل غيرها من البلدان حولها، وإنما بثلاثة أشياء.

الأول: الوقيعة بين مسلميها وأقباطها. تقول الدراسة: توجد في مصر أغلبية سنية مسلمة مقابل أقلية كبيرة من المسيحيين الذين يشكلون الأغلبية في مصر العليا، حوالي ٨ مليون نسمة. وكان الرئيس مُحَمَّد أنور السادات قد أعرب في خطابه في مايو من عام ١٩٨٠ عن خشيته من أن تطالب هذه الأقلية بقيام دولتها الخاصة، أي دولة (لبنانية) مسيحية جديدة في مصر.

والثاني: حملة مدبرة ومنظمة للقضاء على القيم والأخلاق، خاصة مع الشباب، حتى إذا قامت حرب، لا نجد من يحارب إسرائيل. عدد كبير جدًا من الشباب يدمن المخدرات بكل أنواعها.

والثالث: انتشار الفساد، فالملايين من سكان مصر على حافة الجوع، نصفهم يعانون من البطالة وقلة السكن في ظروف تعد أعلى نسبة تكدس سكاني في العالم.

وبخلاف الجيش فليس هناك أي قطاع يتمتع بقدر من الانضباط والفعالية. والدولة في حالة دائمة من الإفلاس بدون المساعدات الخارجية الأمريكية، التي خصصت لها بعد اتفاقية السلام.

ذلك المخطط المعد مسبقًا، والذي كان يسير ويتحقق بسرعة شديدة، فشل بقيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. فقد توقف سيل الفساد الذي كان سيؤدي حتمًا إلى إفلاس مصر وتجريفها، فلن يجد أصحاب المعاشات مرتباتهم، وسيضطروا إلى التسول في الشوارع. وسيخرج الملايين من العشوائيات والأحياء الشعبية للبحث عن الطعام وأخذه عنوة.

الثورة المفاجئة أفسدت المخطط، لكن أمريكا وإسرائيل أسرعت وعدلت في السيناريو القديم، وتعاملت مع الواقع أمامهما في مصر وهو سيطرة الإخوان والسلف على مقاليد الأمور، فقد اختارهم الشعب ليمثلوه في مجلسي الشعب والشورى. فعادت أمريكا وإسرائيل إلى العمليات القذرة في مثل هذه الأمور، مثلما حدث في العراق.

فقد مثلت العراق خطرًا شديدا على مستقبل إسرائيل، دولة بترولية قوية، ورئيس ينفق كل دخل بلاده تقريبًا على مخططه القومي العربي، وبات الشعب الإسرائيلي قلقًا من صواريخه التي تصل إلى المدن الإسرائيلية، تذكرت أمريكا وإسرائيل المحاولات العديدة لضم الكويت إلى العراق التي حدثت أيام الملكية ومحاولة نور السعيد واتفاقه مع الأمير الكويتي، لولا

قيام الثورة في ١٩٥٨، ثم محاولات عبد الكريم قاسم العديدة بعد الثورة، وكاد ينجح لولا الانقلاب عليه وقتله في ٩ فبراير ١٩٦٣.

وانطلقوا لتنفيذ مخططهم، مستعينين بعلماء الطب النفسي، الذي يؤكد سهولة التأثير على رجل مثل صدام حسين، فأعطته السفيرة الأمريكية جلاسبي في الاجتماع الشهير في ٢٥ يوليو ١٩٩٠ الضوء الأخضر لاحتلال الكويت. قالت: إن موقف الولايات المتحدة الواضح والصريح هو عدم التدخل في النزاعات الحدودية بين الدول العربية. ثم أضافت: واشنطن تأمل أن يتم حل النزاع الحدودي بينكم والكويت بأسرع ما يمكن. هذا ما شجع صدام على اجتياح دولة الكويت بجيوشه، ثم وقع في الفخ الذي أدى إلى ما وصلت إليه العراق الآن.

وهذا ما يحدث الآن في مصر، تدخل من أمريكا بأن يحكم الإخوان مصر، وبالطبع سيكون معهم حلفاؤهم السلف، تدخل سافر من هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية، ويتم لهم ما أرادوا لتقع مصر في الفخ الذي أعدوه من قبل للعراق. يعرفون أن حكم الإخوان سيؤدي إلى مشاكل، فسوف يتجرأ السلف ويطالبوا بحكم ديني، والعودة إلى جباية الجزية من المسيحيين، وعدم بناء الكنائس، والتحريض عليهم. ثم ظهور الأفكار المتطرفة كمطاردة الأبرياء من قبل الهيئات التابعة للسلف كهيئة الأمر بالمعروف والنهي على المنكر، واستخدام القوة التي تصل إلى القتل كما حدث لشاب السويس والشقيقين اللذين يعملان في الموسيقي في (أبو كبير) التابعة لمحافظة الشرقية، والصدام مع الإعلام، بتحكم مجلس

الشوري المكدس بالسلف في تعيين رؤساء تحرير الصحف، والصدام مع الفن والإبداع، فكل شيء حرام، حتى لعب كرة القدم لأنها لم تكن موجودة أيام الرسول.

وسيشكل الإخوان والسلف مليشيات خاصة بهم، فقد حاولوا هذا أيام حكم مبارك، فما بالكم الآن وقد تحكموا في كل شيء، ولن يلتزموا باتفاقية السلام مع إسرائيل.

ذلك التصادم سيؤدي إلى تدخل المجتمع العالمي للدفاع عن المسيحيين المضطهدين، والدفاع عن الأبرياء الذين يعانون من تسلط وبطش المتأسلمين، وستتدخل أمريكا لصالح إسرائيل، وسيبدأ السيناريو الذي تم في العراق.

الرجل الذي رفض حكم مصر

عندما توفي السلطان حسين كامل في ٩ أكتوبر ١٩١٧، عرض الإنجليز عرش مصر على ابنه الأمير كمال الدين، لكنه رفض. وهو يعد أول إنسان يرفض حكم مصر، فمصر حكمها سهل جدًا، ولا يمثل أي مشكلة، ويستطيع أي إنسان –مهما كانت قدراته– أن يحكم مصر بنجاح. فالشعب المصري طيب، ويقدس حكامه، وهذه عادة متوارثة من أيام أجدادنا الفراعنة.

فقد أحب الشعب المصري كل حكامه حتى القساة والظلمة منهم. أعجب الشعب المصري بفاروق الملك، أعجبوا بشبابه ووسامته، وكان مضرب الأمثال في الأحياء الشعبية، عندما يرون شابًا وسيمًا يقولون زي القمر مثل الملك فاروق. وكانوا يبررون أخطاءه، فهو ابن ملوك ومن حقه أن يسهر ويسرق ويعربد ويلعب القمار ويرافق النساء.

وأحب الشعب المصري مُحَمَّد نجيب، أعجبوا بطيبته وتواضعه، وعندما عزله جمال عبد الناصر وحدد إقامته في قصر زينب الوكيل بالمرج. قال الشعب إن مُحَمَّد نجيب هو الذي اختار جمال عبد الناصر لخلافته بعد اشتداد المرض عليه، ومازلت أذكر صديقي المسيحي الذي كان يكبرني بسنوات قليلة، وكان يعمل عند خالي، وهو يحكي لي هذه الحادثة وهو

يمثل، إذ يضع يده ناحية شمال صدره، ويتخيل مُحَمَّد نجيب وهو يقولها: فيه جمال عبد الناصر.

وكذلك فعلوا مع جمال عبد الناصر، أعجبوا بطوله وقسمات وجهه، ورجولته. وعندما عين مُحَمَّد أنور السادات نائبًا لجمال عبد الناصر، اعترض صديق لي على هذا؛ لأن السادات يرتدي بذلة بصفين، وقال: تخيل لو تولى الحكم، كيف يكون موقفنا والذي يحكمنا يرتدي بذلة بصفين؟! وتولى السادات الحكم، وظهر بعد سنوات قليلة من حكمه في أزياء عديدة، مرة بملابس ريفية غالية الثمن، ومرة بملابس عسكرية أنيقة تشبه ملابس هتلر أيام الحرب العالمية الثانية، ومرات بالبدل الحديثة، وكنت أتذكر صديقي هذا الذي سافر إلى السعودية، تمنيت أن أقابله لأسأله عن رأيه في ملابس رئيسنا الجديد. وسألت عن عنوانه هذا في السعودية؛ لكي أرسل إليه رسالة لأخبره بأنهم اختاروا السادات –الذي لم تكن تعجبك بدلته أم صفين– من أشيك ثلاثة أو خمسة رجال في العالم. سبحان مغير الأحوال!

لقد رفض الكثيرون في دول العالم حكم بلادهم، منهم الكاتب الإيطالي بندتو كروتشه الذي عرض عليه الحكم بعد موت موسوليني، وأعتقد أن هذا طبيعي في معظم بلاد العالم. فيحكون أنه بعد توقيع ميثاق الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨، قال الرئيس السوري السابق شكري القوتلي ما معناه أنه ارتاح من هذا القيد، قيد الحكم، وأن ملايين شعبه كلهم يتعاملون على أنهم رؤساء، لكن أن يرفض إنسان حكم مصر فهذا هو الغريب والمدهش.

لماذا يرفض الأمير كمال الدين حسين الحكم؟ لقد حكم والده السلطان حسين كامل ثلاث سنوات، ورأى بنفسه القصور العديدة في القاهرة والإسكندرية وباقي مدن مصر التي عاش فيها والده، ورأى الخضوع الذي يبديه لوالده كل من تعامل معه من المصريين. فما الذي جعله يرفض كل هذا العز؟!

قد تكون الفترة التي حكم فيها والده هي السبب، إذ حكم فور بدء الحرب العالمية الأولى. فكانت الحروب حول مدن مصر وقريبة جدًا من القاهرة والإسكندرية، كما أن والده تعرض لأكثر من محاولة اغتيال لقبوله الحكم تحت رغبة الإنجليز، مرة في ٨ إبريل ١٩١٥ عندما أطلق شاب اسمه مُحَمَّد خليل النار عليه في شارع عابدين، لكن الطلقة أصابت إطار العربة التي كان السلطان يركبها.

وفي يوم الجمعة ٩ يوليو ١٩١٥ بينما كان السلطان ذاهبًا لصلاة الجمعة في مسجد أبي العباس المرسي، رمى مُحَمَّد نجيب الهلباوي قنبلة على موكبه أمام المنزل رقم ٩٩ بشارع رأس التين بالإسكندرية (أمام ضريح سيدي يوسف الجعراني)، لكن القنبلة سقطت تحت أقدام الخيل ولم تنفجر.

أم أن الحالة الإقتصادية في البلاد جعلت الحكم صعبًا؟ فقد كثرت في وقت حكم والده جرائم تزييف النقود الفضية والورقية من الأجانب والوطنيين، وضبطت آلات التزييف في عدد من القرى والمدن، وكذلك خطف النقود والملابس والمواد الغذائية من المارة والمحلات العامة، وكثرت

السرقات، واشترك في السرقات بعض المتعلمين لأول مرة في تاريخ البلاد. فمنهم المحامي وأرباب الشهادات من المتعطلين وبعض الموظفين.

أم أن الأمر متعلق بوالده؟ فقد رأى الأمير الشاب والده وهو يعاني من مشاكل الحكم، فآثر الابتعاد عنه. فقد نشرت الصحف في عام ١٩١٧ أن الانجليز جاؤوا للسلطان حسين كامل سلطان البلاد بأحد أطباء الأمراض العقلية، ليكشف عليه ويختبره، ولكن السلطان نهره وطرده من حضرته.

السلطان حسين كامل

ونشرت الصحف الأجنبية أيضًا أن السلطان حسين كامل سلطان مصر، عصبي المزاج، سريع الانفعال، مصاب بالأرق، لا ينام من ليله إلا ساعة أو بعض ساعة.

لا أدري لماذا لم يهتم أساتذة التاريخ الحديث في مصر بشخصية الأمير كمال الدين حسين الذي رفض حكم مصر، تلك الشخصية الفريدة التي تستحق البحث والتنقيب، ولماذا لم يكتبوا عنه ويوضحوا لنا أسباب هذا الرفض، وهل كان محقًا في هذا أم أن الأمر يتعلق بشخصيته هو، فربما ورث القلق والأرق من والده السلطان حسين كامل، فخاف المسؤولية.

الفهرس